ثم اعتقلت !

سبعة عشر يوماً في سجون المباحث العامة

حسن مفتي

إهـــــداء

إلى كل كائنٍ بشري على وجه البسيطة

قادته خطاه العاثرة يوماً، إلى ولوج عالم الزنازين السياسية

فمكث فيها ما شاء الله له أن يمكث

وخرج منها في الغد القريب أو البعيد إلى دنيا البشر

اعلم رحمني الله وإياك

أن قضبان تلك الزنزانة أقرب إليك ثانيةً من حبل الوريد

كن على حذرٍ

فأنت في العالم الرابع !

لا الثالث

ثـم اعتـقـلت



أنـهيت درسي في علوم الحاسب الآلي، والذي كان مقرراً على منسـوبي وزارة الداخلية كدورةٍ تأهيليةٍ للتعامل مع هذه الآلة ونظامها المسخّر لخدمة الإنسان، وذلك بالدور الخامس والأخير من الوزارة يوم الأربعاء الموافق ١٧ صفر مـن عـام ١٤٢٥هــ الساعة الواحدة والنصف ظهراً، وكنت قد انتخبت مدرباً غير متفـرغٍ من قبل شركة العالمية لمعاهد الحاسب الآلي .



عدت إلى منزلي وقد خنقني طريق الملك فهد – شريان الرياض الحيوي – بزحامه الغريب غير المطاق ولا المفسر ! الطريق الذي ننثر فوق إسفلته بقايا أخلاقنا وسلوكياتنا وإيثارنا لحقوق الآخرين على حقوقنا ! كنت جائعاً للغاية، وجهازي العصبي ينبهني إلى وجوب تناول شيءٍ من طعام الغداء، أو سد رمق هذه المعدة الشرهة بما تيسر ولو من شرابٍ على هيئة لبنٍ، أَضف إلى ذلك إرهاق التحضير للدرس، ومتابعة تقدم المتدربين في فك طلاسم نظام التشغيل الأمريكي، ونقر عبثي على لوحة المفاتيح لخطاباتٍ وهميةٍ، تداعب رموزها أنامل الموظفين، وتحثهم على المضي قدماً في رسم ملامح رسائلهم وخطاباتهم .

وصلت المنزل قبيل صلاة العصر بحوالي ٤٥ دقيقةٍ تقريباً، ولم أركن إلى لذيذ نومٍ لاقتراب موعد الصلاة، دفعت بردٍّ أو ردين – لا أذكر فحواهما بطبيعة الحال – إلى منتدى الساحة العربية، وهو من أوائل المنتديات التي حققت شهرةً لا يستهان بها على رقعة المنتديات الإليكترونية، حتى إن القنصل الأمريكي – وهي امرأة – استسلمت لإغراءات الموقع وزخمه الإعلامي، فدشنت معرفها الخاص بها، والملقب بالقنصلية الأمريكية !

كنت – لأسبابٍ مجهولةٍ – أتوجس شراً من هذا اليوم لأمورٍ خفيةٍ لا أعرف حقيقة مصدرها . ربما كانت بقايا حاستي السادسة ! الله أعلم ...



ولعل – أبرز – ما عزز تلك المخاوف، اتصالات مريبة انهمرت على منزلي وهاتفي المحمول قبل إلقاء القبض عليّ ببضعة أيام، ختمتها مكالمة سخيفة – ما انفك جهاز المباحث عن ترديدها حتى الساعة – بوصول طردٍ بريدي باسمي! لاسيما مع استعار حرب الجهات الأمنية على ما يوصف حينها بالفئة الضالة أو المطلوبين أمنياً، وتتبع خلاياهم ومريديهم من المتعاطفين معهم، أو المتورطين في تقديم خدمات الدعم المادي واللوجستي لهم.



نسيت إعلامكم ! أثناء خروجي من وزارة الداخلية في ذلك اليوم، رأيت أفراداً من حراسات الوزارة، يقومون بتوزيع كتيباتٍ خضراء اللون على

المراجعين، فيها صور ومعلومات عن المطلوبين أمنياً في تلك الحقبة، على رأسهم رأس الهرم، المطارد رقم واحد " عبد العزيز المقرن " أبو هاجر، والذي سقط قرب أستاد رعاية الشباب بحي الملز قبل عامين ونصف[1]، في معركةٍ طاحنةٍ دارت رحاها بعد منتصف الليل .

طلبت من زوجتي أم أيوب – حفظها الله وجزاها عني خيراً – أن تسخن لي ما تبقى من طعام الأمس تمهيداً لملأ هذه البطن الجائعة بما تيسر عقب الصلاة، أذن المؤذن للعصر، توضأت وحملت كتابي الموسوم " بموسوعة الآداب الشرعية " الجزء الثاني – فقدته في سجن الحائر – وكتبت تنازلاً عنه بأنني لا أطالب به الدولة بعد خروجي من السجن !

خرجت باسم الله من الباب الداخلي للمنزل الموصل إلى فناء البيت، ومن ثم الباب الخارجي الجنوبي، توجهت إلى بيت الله آمناً مطمئناً غافلاً عما يحاك حولي ويدبر ! أو ما تمت حياكته وتدبيره وتفصيله وخياطته بمعنى أصح !

وفي الطريق إلى المسجد الذي يبعد عن مسكني بضعة أمتارٍ توقفت سيارة جيب رنج روفر لونها أبيض، ترجل منها قائدها وأحد المرافقين له، كانا غايةً في الدماثة والأخلاق والحق يقال، تقدم مني قائد المركبة (أهديته نسخةً من كتابي) انتحار حمار مذيلةً بتوقيعي بعد اعتزالي غشيان المنتديات بالاسم المستعار .

[1] - تاريخ كتابة هذه المذكرات .

ألقى عليّ تحيةً عريضةً طولها خمسون ذراعاً، وعرضها عشرة إنشاتٍ ! ختمها بقوله : الشيخ حسن!؟ ليصافحني متبسماً خجلاً أو هكذا خيل إلى! صافحته وصافحت رفيق دربه وقد غلب على ظني أنه مستفتٍ أو تائهٍ أو صاحب حاجةٍ، وما أكثرهم في زماننا هذا .

لكنه كان كما قال الأول :

وكان ما كان مما لست أذكره – فظن شراً ولا تسأل عن الخبر

هممت أن أقول له : سم طال عمرك، فتوى، عقد نكاح، طلاق، تزكية، مشورة، ترجيح أقوال ... وش تبي بس آمر !؟

غير أنه قطع عليَ حبل خواطري بقوله : معك الرائد فلان من الإدارة العامة للمباحث ! وهذا زميلي النقيب علان من نفس الإدارة !؟ حتى تلك الساعة لم أستوعب مقولته، كان جل همي منصب على درس العصر والتوجه إلى المسجد لأداء الصلاة، قطعت حبل أفكاري متماسكاً في زيفٍ بلفظة : خيراً ؟

قال : اركب معنا ولا تكن .... اركب معنا وتفضل !

قلت له : نصلي ويصير خير !

قال : سنصلي بحولٍ من الله .

اعترضت : دوائي من البيت، لا بد لي من إحضاره فأنا لا أتحرك بدونه ؟

قال : سنعود بعد دقائقٍ ... لا تقلق !



لم أجد بداً من الركوب معهما في تلك السيارة ذات الأبواب الثلاثة، والتي يقبع فيها الموقوف كفأرٍ في مصيدةٍ ! لا يستطيع الفرار من المباحث إلا إلى المباحث، دار محرك السيارة وانطلقنا نسبر أغوار الحي على غير هدىً من سيرٍ، وطوال وقت دوراننا في الحي، كان صاحبنا يسألني : من في المنزل ؟ وهل هناك من ضيوفٍ أو زوار وما إلى ذلك ؟

أجبت : زوجتي وبناتي وشغالة استعرناها من إحدى المدارس للعمل باليومية !

كان يرمق المرآة في حـذرٍ وترقـبٍ وحـسٍ أمـنيٍ عـالٍ، خوفـاً علـى نفسـه مـن مطاردة أحد المطلوبين لـه أو القتلـة، أو خوفـاً مـن تحريـر رهينتـه " حضـرتي يعني" ثم قطع حبل توترنا بقوله : سمعنا عنك كل خيرٍ وسمعتك في الحارة زي سمعة خـام برنـت في الأسـواق العالميـة ! وهـو كـلام لا يسـاوي ثلاثـة تعريفـة بالعملة الموزمبيقية .

قلت له : ذلـك مـن فضـل الله علينـا وعلـى النـاس، ولكـن أكثـر النـاس لا يشكرون، ثم رفع قيداً حديدياً فضي اللون وقال لي : يا شـيخ حسـن : نحـن في العادة نكبل كل من ألقينا عليه القبض، ونصفده بهذا القيد، ولكن نظراً لسمعتك الطيبة، وأخلاقك العالية، فإنني لن أستعمل معك هذا القيد !



كدت أن أقول له : علينا يا منـاحي ؟ لكـنني آثـرت الصـمت المطبـق، لأنـني أركب سيارة مجهولٍ، وأقاد إلى المجهول، لذنب مجهولٍ !

توقفت المركبة بنا قرب مستشفى دلة بالحي، الجهة الشمالية الشرقية منه تحديداً، وهناك انتظرنا في صمتٍ وترقبٍ وبطأٍ مصيرنا المجهول ! ولم أكن أدري أن أول الغيث رنج روفر، وأن بقية الزخات في طريقها إلينا .



كان المكان يطل على طريق الملك فهد، وكان بالإمكان رؤية الغادي والرائح من شمال مدينة الرياض إلى جنوبها والعكس كذلك أيضاً، لم يطل انتظارنا كثيراً، لينقطع حبل الخواطر والتأملات – فجأةً – طلائع مركباتٍ ذات دفعٍ رباعيٍ مضللة، ومدرعة واحدة خاصة بمكافحة الشغب، وما أدري كم جمس، وسيارة واحدة تويوتا عليها مدفع رشاش عيار خمسين أو هكذا خيل إلي!

إنها طلائع فتحٍ مبينٍ لا شك في ذلك ولا ريب، يا لها من كوكبة رائعة ! أسبغت عليّ فخراً، وغمرتني بالكرم، وأسدلت فوق هامتي العزة، لقد تلقفتني أيدٍ أمينة مو رزق، بل أمينة والسلام !

ظننت والظن أكذب الحديث أن هناك عمليات دهمٍ متعددةٍ في الحي والضواحي المجاورة لأوكار الضلالة، وأنفاق الخزي، ولم يدر في خلدي أنني

أزعجت السلطات لدرجة الاستعانة بقوات حفظ السلام الدولية في إقليم كوسفو! غير أن هذا ما جرى .

قال لي – صاحبي – قائد المركب : أرجو أن لا تقلق من هذا الجمع المبارك !؟



قلت له : معذرةً، الأمم المتحدة هذه جاية علشاني !؟

– نعم ؟

قلت له : يا خوي ترى إقليم دارفور في السودان مو في حي النخيل !

قال لي : يا أخي أنا عبد مأمور والشكوى لله، فلا تبتئس بهذه البروبجندا ! يقال إن " رادوفان كراديتش " حق صرب البوسنة قـالطٍ عنـدك أمـس ومتعشـي بعد !؟

أجبت : لو اتصلت عليّ لجئتك أنـا والجـيران، ومـا لـه داعـي الكلافـة !
كلفتم على الدولة والمباحث والشرطة والمرور وقوات الطوارئ الخاصة – أجهـزة
أمنيـة نسـقت وشـاركت في القـبض علـي !– لم يعلـق بشـيءٍ، اكتمـل حضـور
الفريق، واستوفى فريق المداهمة شروط الهجوم تمهيداً لعملية الدهم .

أرادوا التحرك، فقلت له معترضاً : أنا أقترح ألا تتحركوا إلا بعد الصـلاة،
لسببين، الأول : سمعتي بين الناس والتي سمعت عنها كل خيرٍ كما زعمت.

والثاني : الحفاظ على مظهركم العام أمام جماعـة المسـجد، تـداهمون وقـت
الصلاة !؟ ما يصير يا خوي، أخاف الهيئة تمسكم !

الشباب استحسنوا الاقتراح وقالوا لي : يجيي منك يا الإرهابي كارلوس !
قدّرنا انقضاء وقـت الصـلاة، ثـم دار المحـرك وهممنـا بالمسير إلى الـوكر الـذي
أقطنه، وفجأةً ... جاء أحد رجال الأمن مسرعاً يعدو لاهثاً، توقف أمام المركبة
في قلقٍ بالغٍ، أشار إليّ مخاطباً قائد المركبة : اسـأله الآن فـوراً عـن أمـرٍ وقـع في
المنزل !!؟

آمنت فعلاً أن " أسامة بن لادن " كان في ضيافتي عصر ذلك اليوم !!

* * * * * * * *

المــداهــمــة



كان السؤال المفصلي عـن الحادثـة الـتي زعـم رجـل الأمـن أنهـا وقعـت في منزلي، هي اقتراب شخصٍ مجهول الهوية مـن البيـت ودخولـه فيـه ! عنـدما سألني هذا السؤال عـن الشـخص المجهـول الـذي زعـم أنـه دخـل في منزلـي، توجست شراً وذهبت الظنون يمنةً ويسرةً، وأيقنت بالشر على وجه الحقيقـة ! من يكون هذا المجهول !؟ إرهـابي لا سمـح الله جـاء قصـداً إلى المسـكن ؟ طـرّار "شـحاذ" إذا أن أكثـر مـن كـان يغشـى بـابي طوائـف مـن الشـحاذين والفقـراء ومجهولي الهوية من المتسللين، وكأنني فاتحٍ وكالة غوث وتشـغيل اللاجـئين !

أو فاتحٍ فرع لمصلحة الزكاة والدخل في مسكني ! هل يكون المتسلل حرامي في وضح النهار !؟

قلت للأخ المسؤول وقد غلب على ظني أنه قريب من العائلة : ربما كان شقيق زوجتي، فهو يزورنا بين الفينة والأخرى على غير ميعادٍ !

سألني : هل أنت متأكد ؟

قل له : إن كان هناك من أحدٍ فلن يكون إلا هو . وفي الحقيقة ما عدت أدري هل اقترب شخص من المنزل فعلاً أم لا ؟ أم هو سؤال اختباري للتحقق من الجماعة المقيمة في مسكني ؟ أم أن جماعة الدبابيس توهموا اقتراب شخصٍ من باب المنزل تحت ضغط التوتر السائد في ذلك الموقف الساخن المتصاعد ؟ أم ظنوا أنه كمين ؟ أم وأم وأم !؟ الله أعلم .

تحركت قوات حفظ السلام الدولية وأنا برفقتهم كفأرٍ وقع في مصيدةٍ ولم يسمى عليه أحد، وكانت القوة المتحركة على ضربين، الإخوة الدبابيس والمسامير والأطناب " جهاز المباحث برمتها " هكذا يلقبهم العامة، وكنت برفقتهم ولا فخر، وقوات حفظ السلام الدولية، أصحاب رشاش خمسين ملي سيء السمعة .

أما القسم الثالث فقام عماده على الإخوة من قوات التحالف المشترك، وكانوا قد سبقونا في دخول دولة الكويت ... أقصد في الوصول إلى أعماق الحي، ولم أرهم إلا هناك، وانعقد لساني من فرط هذا التنوع في القوات، والتناغم فيما بينها استعداداً للمداهمة .

كل هذا لأجلي !؟ هكذا هتفت سراً .

والله ودخلنا التاريخ يا ولد .... ولكن من النافذة الخلفية !

أنيط بهذا القسم الأخير مهمة إغلاق الطريق وتنظيم حركة المرور في الحي "شرطة – مرور " هؤلاء وجدتهم في المربع المحيط عند البيت، وقد شكلوا طوقاً أمنياً من سيارتيّ شرطةٍ على شكل الحرف اللاتيني V أو الحرف سبعة باللغة العربية منفرجة قليلاً، عند كل مدخلٍ من مداخل المربع الذي أقطنه، في حين استوى – واقفاً – عند كل دورية فرد أو ثلاثة مددجين بالرشاشات مرتدين ستراتهم السوداء الواقية من الرصاص ! لفت نظري أن أحدهم يحمل رتبةً عاليةً، عقيد أو عميد الوهم مني !

حقيقةً شعرت بالخجل والتواضع، وتذكرت مقولةً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك المشهورة بعد انتهاء الأزمة، عندما قالت في تواضعٍ رضي الله عنها : وما كنت أظن أن ينزل الله في شأني قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، تصغيراً لشأنها، وتواضعاً منها رضي الله تعالى عنها، ولله المثل الأعلى

ومعاذ الله أن أقارن نفسي بموطأ قدمها رضي الله تعالى عنها، لكـن هـذا الخـاطر انقدح في ذهني بعد تلك الأحداث بوقتٍ قصيرٍ، من أكون أنا حتـى أتسـبب هـذا الإزعاج للمسؤولين في الدولة !؟ يا خوي اتصال هاتفي وأنا عندكم !



إذن تحرك الموكب تجاه وكر الرجل الشرير، الإرهابي العتيد، أبو المشاكل، والذي حاك المؤامرة الكبرى وأحدث البلبلة القصوى !

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الحقبة، وتحركـي مـع الوفـد المرافـق، أتـذكر أنشـودةً قديمـةً للغايـة، كانـت ترافـق مسلسـلاً مصـرياً خائبـاً عـن الفتوحـات الإسلامية من جماعة " لمازا، وسكلتك (ثكلتك) أمك " شاهدته وأنا طفل صغير وعلقت فصوله بذاكرتي، تقول أنشودته : خيول النصر قد خرجـت فابسـم الله مجريهاآآآآآ (بالمد) ...... خيول النصر ! إلخ ..

قبل أن أصل إلى منزلي قال لي صـاحبي الـذي ألقـى علـي القـبض : دق لطمـة "تلثم بشماغك" وهنا علا صوتي ولأول مرةٍ محتجاً : قلـت لـه : لم أفعـل شـيئاً أخجل منه حتى أتلثم، ثم إن الجميع هناك يعلم أنني أنا المقصود بهذه الضـجة فلماذا التلثم ؟

وصلت كوكبة الفتح وطلائع النصر إلى المنـزل، وقـد أفسـحت لنـا الـدوريات الأمنية طريق الدخول بكل يسرٍ وسهولةٍ، فتوقفت جميع المركبات أمـام وحـول المنزل، في حين توقف جاري عن كثبٍ يرمق الأحوال مذهولاً، رفعت يدي إليـه في تلقائيةٍ أحييه، وكذا فراش المسجد السيرلانكي – الله يذكره بالخير – أعتقـد أنه انقدح في ذهنه أنني أؤوي فصائل من نمـور التاميـل " فصـائل إيـلام في شـبه جزيرة جفنة بسيرلانكا "



أما جاري – موظف في وزارة الداخلية – فقد كان يضـرب أخماسـاً بأسـداسٍ وهو واقف عند باب مسكنه، ولسان حاله يقول وش سـويت يـا أبـا أيـوب هـذه المرة !؟ إضافةً إلى بعض أفراد الجيران الـذين واتـتهم الشـجاعة فـاعتلوا أسـطح المنازل وخزانات الميـاه، يشـهدون مبـاراةً حاميـة الـوطيس بـين فريقـي الإتـي "إتحاد" والأهلي، بتعليق طيب الذكر سليمان أبو داود !

توقفت مركبتنا أمام المسكن، وهناك تم تسليم البضاعة إلى قوات حفظ السـلام الدولية، والموسومة بقوات الطوارئ الخاصة، وعقول بعضهم تشبه عقول قـوات

الأمن المركزي في دولة مصر، اعتذر مني المخبر بأنه سيسلمني لهم مؤقتاً إلى حين الانتهاء من عملية المداهمة .

في هذا الموقف لا تملك من زمام أمرك شيئاً، فأنت مجرد فرخة، دجاجة، كتكوت صغير من دواجن الوطنية أو التنمية في زوايا هذا الوطن المعطاء !

كانت الجهة الشرقية من مسكني تحتوي على مسكنين في مرحلة التشطيبات النهائية، صعد إلى غرفها العلوية أكثر من قناصٍ الوهم مني، لكنني رأيت قناصاً أو اثنين في الأعلى، وحينما اكتملت عملية توجيه الأسلحة إلى فناء بيتي، أعطوا الإشارة المتفق عليها للفريق الأرضي أن اقتحموا، وهنا انقدح في ذهني غريزياً هذا السؤال ؟ ماذا لو خرجت إحدى بناتي إلى حوش المنزل ووقع خطأ ما لا قدر الله ؟

الخطأ قائم في ظل هذا التوتر أليس كذلك!؟



ومن باب إبداء حسن النية للقوم، وحتى لا يظن بي السوء، أخبرت الضابط باحتفاظي بقطعتي سلاحٍ، أحدهما رشاش مصرح لي باقتنائه، والآخر مسدس لا أحمل تصريحاً له، وبندقية صيدٍ واحدةٍ .

توقفنا عند باب البيت، وقام أحد أفراد قوات حفظ السلام الدولية بتلقيم رشاشه الكلاشينكوف، ووضع الخبيث زر أمان سلاحه على خاصية الصلي أو الرش، الخيار الأوسط ، لأن الخيار الأول يؤمن السلاح، والثاني يفتح أبواب الجحيم على مصراعيه، أما الخيار الثالث فهو خيار الرمي المنفرد، وبما أن سعر الخيار مرتفع هذه الأيام، فإنني أوصيكم ونفسي بشراء الكوسا أو الباذنجان بدلاً منه !

فاصل إعلاني بمناسبة غلاء الأسعار .

قام الأخ البطل بوضع فوهة سلاحه في ظهري، ممسكاً بيده اليمنى كتفي حتى لا أتحرك يمنيةً أو يسرةً، أو أفكر بالهرب منه، وخلفه مباشرةً آمر القوة المهاجمة ضابط برتبة رائد أو ملازم أول الوهم مني، والجميع ارتدوا ستر النجاة، أقصد السُتر الواقية من الرصاص .

غطى صاحبنا المهاجم وجهه بلثامٍ غريبٍ للغاية، لا هو لثام يشبه لثام قوات **SWAT** الأمريكية الخاصة، ولا هو لثام يشبه أقنعة سلاحف

النينجا، أو قناع البطل المكسيكي النبيل زورو، لثام غريب والسلام، ثم قال لـي بالنص : افتح الباب يا سمسم، وأقسم بالله العظيم إن حاولـت العبـث أو اللعـب فإنه سيحيل ظهري إلى مصفاةٍ !



باعتباري كنت في المقدمة، والفريق خلف ظهري، فأنا مجرد رهينـةٍ بريئـةٍ تترس بها بطل المداهمة الهمام ! وعلى أيـة حـالٍ لا يملـك المشـتبه بـه في هـذا الموقف سبيل اعتراضٍ أو احتجاجٍ، فالوضـع متـأزم وهـو في طـور الغليـان، وقـد شارف على الانفجار التلقائي، وحسبي الله على من كان السبب في تصاعد وتيرة الأحداث وسخونتها، ممن فقد الاتجاه الصـحيح لبوصـلة الجهـاد، فحولهـا إلى الداخل بدلاً من ميادين الرماية الحقيقية !



التـفـتـيـش



قال لي مندوب قوات حفظ السلام الدولية، والذي وجـه لـي فوهـة رشاشـه ونخسها في ظهري : افتح يا سمسم، وفعـلاً فتحـت لـه البـاب ولم أعلـق علـى تحـذيره المجـوج بأنـه سـيحيل ظهـري إلى مصـفاةٍ إن حاولـت رقـص العرضـة النجدية داخل فناء البيت غير بكلمةٍ واحدةٍ فقط، خير إن شاء الله .

دخل الجند إلى المنزل وانقسموا إلى شطرين، شطر توجه إلى القسـم الشـمالي من الفناء، وشطر وأنا في مقدمتهم توجهوا إلى القسـم الجنـوبي، ولـو اسـتطاعوا

لشطروني نصفين ولتترس بجزئي العلوي أصحاب الشطر الشمالي، أما الجزء السفلي فسيكون درعاً حصيناً للشطر الجنوبي .

وصلنا إلى باب المنزل الداخلي من الجهة الجنوبية والتقى الشطران عند تلك البوابة .

حينها قال لي آمر القوة سعادة الضابط : اطرق الباب وأعلم الأهل بوجوب التحرز والاجتماع في غرفة النوم مع حظرٍ كاملٍ للتجوال داخل أرجاء المنزل، كنت في المقدمة، وصاحب الرشاش خلفي وهو ينخسني بفوهة بندقيته في الظهر قد تترس بي جيداً، أما سعادة الضابط فقد تترس بالجندي في المركز الثالث، يعني جماعة متترسة بشكل متروس ومدروسٍ ! في حين قبع بقية أفراد القوة خلف عجلة التروس !

طرقت الباب بشدةٍ حتى جاءت ابنتي الكبرى لفتحه، قلت لها : روحي عند ماما وقولي لها ادخلي إلى غرفة النوم حالاً ! فقالت لي بفضول الأطفال : ليش !؟

قلت لها معي ضيوف وسندخل الآن ! طال الانتظار قليلاً حتى جاءت الزوجة وكلمتني من وراء الباب وهي تسأل عن قصة هؤلاء الضيوف الذين اضطروها لدخول غرفة النوم ؟ وجاؤوا من الباب الجنوبي الخاص بالنساء، لا الشمالي المخصص للرجال ؟

قلت لها : سأشرح لك فيما بعد !

قالت : من معك الآن !؟

قلت : أبداً جايب معي وزارة الدفاع والطيران برمتها ! ادخلي إلى غرفة النوم واجمعي حولك بناتك حتى تنتهي هذه الأزمة التي طالت بلا طائلٍ ! وفعلاً علمت المسكينة أن في الأمر لبس وعبس ودبس أيضاً، فحبست نفسها في غرفتها لا تلوي على شيءٍ وقد جمعت بنياتها حولها، دخلنا أنا وقوات حفظ السلام الدولية، أتقدمهم في الدخول إلى كل غرفةٍ من غرف المنزل الثمانية، بمنافعها (دورات مياه، مطبخ، مخزن) حتى وصلنا مكتبتي الخاصة، وكانت مهمة هذه القوة التطهير والاشتباك مع الإرهابيين المفترض وجودهم داخل المنزل !

عندما وصلنا إلى المكتبة وجدت العاملة التي قمنا باستعارتها من إحدى المدارس الخاصة تمسح خزانةً من خزائن كتبي في سكينةٍ وأمان وهدوءٍ تامٍ، غير أنها توقفت عن عملية المسح والتنظيف وهي ترمق هذا الجمع الغريب المدجج بأخبث أنواع الأسلحة وأشدها فتكاً في ذهولٍ فاغرةً فاها ! رب المنزل محاطاً بهؤلاء المقنعين الذين ينظرون إليها شزراً، وهي تمسك بين أناملها خرقةً عفا عليها الزمن، والأسلحة مصوبة، وأنا صامت لا أملك من زمام أمري شيئاً، كنت

في المقدمة أتحرك بالريموت كنترول، تـوجهني يـد سـعادة الأخ المقـتحم يمنـةً ويسرةً .

وهنا طال حبل صمتنا وهي تنظر إلينا في حيرةٍ وخوفٍ وترددٍ، حتى قطعت حبل السكون بأمري لها فلانة : اصـعدي إلى أعلـى واحبسـي نفسـك مـع مامـا، وكأنها كانت تنتظر هذا الأمر في ضراعة، ترغب في مجرد إشارةٍ للنجاة بجلدها من هذه المعمعة، أجابتني بصوتها المخنـوق المضـطرب : طيـب بابـا، وأسـرعت مهرولةً إلى أعلى !

من طريف ظنها أنها قالت لزوجتي عندما رأت هذا الجمع المدجج بالسلاح : ماما هازي جوازات جاية علشاني، لأني أشتغل عند غير كفيلي !؟

كان آخر موقعٍ تم تفتيشه في المنزل هو سطح البيت، لم يجد القوم شـيئاً ممـا ظنوا فتوزعوا على ثلاثة أقسامٍ، قسم بقي في مجلس النساء، وقسم تسكع في فناء المنزل، وقسم بقي خارج المنزل تمهيداً لدخول جماعةٍ أخرى، لسـت أدري مـن أين حلوا أو أتوا ! فبين كل لحظـةٍ وأخـرى يتكـاثر هـذا الجمـع بطريقـةٍ تـثير الإعجاب والريبة . تقول نزلوا من السماء ما شاء الله، أو مستنسخين !

دخل الإخوة الدبابيس من الإدارة العامة للمباحـث إلى المنـزل، وسـألني الأخ المسـؤول عـن أجهـزة الحاسـب الآلـي، فأشـرت إليهـا وكنـت امتلـك جهـازي

حاسوب، واحد لي والآخر لبناتي، قاموا بفك تلك الأجهزة، ومصادرتها مع جميع الأقراص الضوئية والأقراص المرنة الفلوبي دسك، ولم تكن انتشرت في تلك الحقبة تقنية الفلاش ميموري أو الأقراص الصلبة " هارد دسك "، وإلا لقاموا بقلب البيت رأساً على عقبٍ بحثاً عنها .

غير أنني أذكر – والشيئ بالشيء يذكر – أن جيلنا القديم ممن أوقعه حظه العاثر في قبضة الإخوة المباحث، قبل فشو ظاهرة تقنية الحاسبات الآلية، كانوا يُسألون (بضم الياء) عن الأشرطة السمعية والبصرية، إضافةً إلى المنشورات والكتب والمجلات " كمجلة السنة" لصاحبها الشيخ محمد بن نايف بن سرور بن زين العابدين، الأخ الذي تنتسب له الجماعة السرورية، طبعاً الرجل تاب إلى الله مؤخراً وأناب، وصاهر بعض حكومات الوطن العربي، على رأسها حكومة الأردن الهاشمي الشقيق، بالرفاه والبنين أخ محمد، شخصياً ... لا ألومك ولا ألوم غيرك من شيوخ الفتة والكوارع، وأرجو أن لا تكون منهم إن شاء الله، فالجوع كافر وبعض الحركات الإسلامية لا تطعم خبزاً ! بس مصاهرتك لحكومة الأردن غريبة شوية، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس !

إذن قام رجال المباحث بفك تلك الأجهزة وجمع متعلقاتها، ثم طرح الأخ المسؤول عن عملية التفتيش هذه اللحوظة على الإخوة المفتشين قائلاً : ابحثوا في مكتبته عن أي كتابٍ من كتب الشيخ الجليل حمود بن عقلا الشعيبي !

قلت له : لا تتعب نفسك لا أقرأ للشيخ الإمام، ولن تجد في مكتبتي العامرة شيئاً من كتاباته، ليس زهداً فيه ولا في علمه، بل لأن مستوى قراءاتي تطور إلى نظريات كارل ماركس وأدلف هتلر وسيجموند فرويد وبقية الطواغيت والزنادقة والكفرة بالله !

وهذا من عيوبي، حب التطفل على تراث الآخرين حتى وإن كانوا من عتاة الكفرة الفجرة ! ولكن بعد خروجي من السجن اقتنيت كتب الشيخ الفاضل العلامة حمود بن عقلا الشعيبي قدس الله روحه ونور ضريحه، وهي تباع في المكتبات العامة وفيها علم غزير للغاية ! وهذا أمر غاية في الطرافة والغرابة، أن يفتش عن شيءٍ يسمح ببيعه في المكتبات لاحقاً !

طالت عملية التفتيش وامتدت لتشمل غرفة النوم حتى، وعزز عملية التفتيش دخول مخبرةٍ إلى الغرفة التي احتجزت فيها زوجتي وبناتي، خوفاً من امتداد عدوى الإرهاب لأهل بيتي ! كانت الأخت المخبرة تشتكي من الحر كما أخبرتني زوجتي فيما بعد ! وتتأفف، أول مرة أشوف واحد رابته كويس ويتأفف لمجرد الحضور ! ! مع أن عملية القبض تصادفت مع آخر فصل الشتاء والأمطار، بمعنى لست أدري ما هو مصدر ذلك الحر المزعوم !؟ ربما كان لسخونة الأحداث دور في ذلك !؟ الله أعلم .

لم أجد بداً من الجلوس في مجلس النساء مع قوات حفظ السلام الدولية، بعد أن نال مني الإرهاق النفسي والبدني، تجاذبنا أطراف الحديث قليلاً مع الكتيبة المقنعة بأقنعة سلاحف النينجا ! قلت لهم مجاملةً : والله ودي لو قهويتكم في غير هذا الظرف العصيب .

أجابوا : الله يسلمك، إن شاء الله في موقفٍ أحسن من هذا، وأثناء حديثنا دخلت ابنتي الصغرى "ريما" تحمل لعبتها في يدها وكانت في الخامسة من عمرها، فقالت لي وبكل براءة أطفالٍ والله يشهد على ما أقول : بابا هؤلاء يهود!؟

وأشارت إلى قوات حفظ السلام الدولية !؟

ران على المجلس صمت ثقيل للغاية، وتبادل القوم النظرات فيما بينهم مع ابتساماتٍ لزجةٍ محرجةٍ ! قطعت صمت المجلس مصححاً : لا يا ابنتي هؤلاء مسلمون مع الأسف الشديد !

لم يكن أسفي على إسلامهم معاذ الله، غير أنني لست أدري ولا أذكر لماذا برزت من شفتيَّ كلمة الأسف حتى الساعة ؟ ربما كان أسفاً على الموقف الأليم، أو على تسارع الأحداث وتصاعدها، أو لعدم وجود تفسيرٍ منطقي لها أصلاً، لكن هذا الذي وقع وجرى، وأنا مجرد راصدٍ أحكي ما حصل وأتجاوز عن كثيرٍ من

التفاصيل حتى لا أخرم العهد الذي قطعته للقوم بعدم الحديث عن بعض ما جرى !

وكنت قد نبهت عليها أكثر من مرةٍ ألا ترمي رجال الأمن باليهودية، ومرد هذه العقدة النفسية إدمانها للصورٍ ومشاهد من الانتفاضة الفلسطينية المباركة، وحجارة الأطفال تنهمر على رؤوس الصهاينة الأوغاد في زيهم العسكري، وتصليهم ناراً حامية، فانقدح في ذهنها الصغير هذا الارتباط الشرطي الخاطئ بين الزي العسكري وبين اليهود!

وأذكر أنني كنت في مكة يوماً، وكان الوقت مساءً، وأعتقد أن شخصيةً سياسيةً ما وصلت إلى الحرم لزيارته والصلاة فيه، فرأيت العشرات من قوات الطوارئ الخاصة يحيطون بإحدى بواباته، فسألتني ذلك السؤال قبل تلك الحادثة . ولم أنجح في تغيير قناعتها حيال ذلك الزي المشؤوم حتى كبرت أصلحها الله، لتغير الصورة النمطية الخاطئة عن رجال الأمن، وأنه ليس كل من ارتدى بدلةً عسكريةً أصبح يهودياً !

توضأت وهممت أن أصلي العصر، فحضر الإخوة الدبابيس عن بكرة أبيهم، وتخلف عنا قوات حفظ السلام التي بدأت بالانسحاب تدريجياً، صليت بالقوم إماماً في مجلس المنزل، كان الحضور طيباً للغاية، حوالي صف ونصف ! وبعد الصلاة رفعت يدي ودعوت الله أن يكشف الكرب ويزيل الغمة، بعد أن فرغت

من دعائي، قال لي كبير القوم وشعرت بشفقةٍ عليه ورثاءٍ لقوله : يا شيخ حسن لا تدعو علينا !

فقلت له وكنت صادقاً :ما دعوت عليكم، وما حقدت إلا على ذلك الوغد الذي وجه سلاحه لظهري، أما أنتم فلم أرى منكم حتى الساعة إلا كل خيرٍ وأدبٍ والحق يقال !

بعد أن ظفر رجال المباحث ببعض مقتنياتي وكتبي التي يرونها غايةً في الأهمية لبناء قضيتهم، كنا على أهبة الاستعداد للرحيل، وكنت أود إنهاء هذا الفصل المزري بأقصى سرعةٍ حتى لا أسبب مزيد حرجٍ لأهل بيتي، كنت خجلاً منهم – بالدرجة الأولى – أن أوقعتهم في هذا المأزق، وكانت زوجتي ترمق الجمع وهي جالسة على الدرج برفقة البنيات، فقال لي آمر القوم هل ترغب في قول شيءٍ لها ؟ يمكنك ذلك .



قلت لها : انتبهي للبنات ولنفسك، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، ولا تخبري أمي عما جرى هنا، قولي لها : إنه سافر إلى الخارج أو إلى أي

مكانٍ، لا أريدها أن تعلم شيئاً مما جرى، ثم أوصتهم بي خيراً، فخرجنا وقد خلفت أجزاء من روحي ودمي في ذلك المسكن، مع شعوري بالراحة النفسية أن انتهى هذا الفصل على خيرٍ .

كان إزعاج حضورهم الخارجي قد خف كثيراً، وتلاشى جمعهم أو قارب على التلاشي والانتهاء، ركبت إحدى سيارات القوم، وركب معي مخبران، وقبل أن يركبا اختلفا فيما بينهما من يقود المركبة، زيد يقول لعبيد سق أنت، عبيد يقول : لا .. تكفى أنت سق، لم تحسم المسألة فقلت لهما ممازحاً : وش رأيكم أسوق أنا ؟ ترى ما عندي مانع، ضحكا فركبا، وقال أحدهما : راعي بر بهذه الجيوب الواقفة عند منزلك ؟

قلت له : لا، إنما أنا متشبع بما لم يعطى، وأرجو أن لا أكون كلابس ثوبي زورٍ !

انطلقنا تصحبنا دورية أمنية من أمامنا وأخرى من الخلف، وانساب الموكب في طريق الملك فهد سائراً باسم الله، كنت أرى الناس في مركباتهم قد انشغلوا بهموم معاشهم وأفراح حياتهم، لا يدرون شيئاً عما تحمله هذه المركبة في جوفها من مصائب وأحزانٍ طاغية، انشغلوا عنك بحالهم، حتى وإن علموا فما عساهم يفعلون ؟! ربما واسوك أو نظروا إليك بريبٍ واشمئزازٍ كوباءٍ خفيٍ، أو طاعون ظاهر، أو لعنة غضبٍ حلت من السماء !

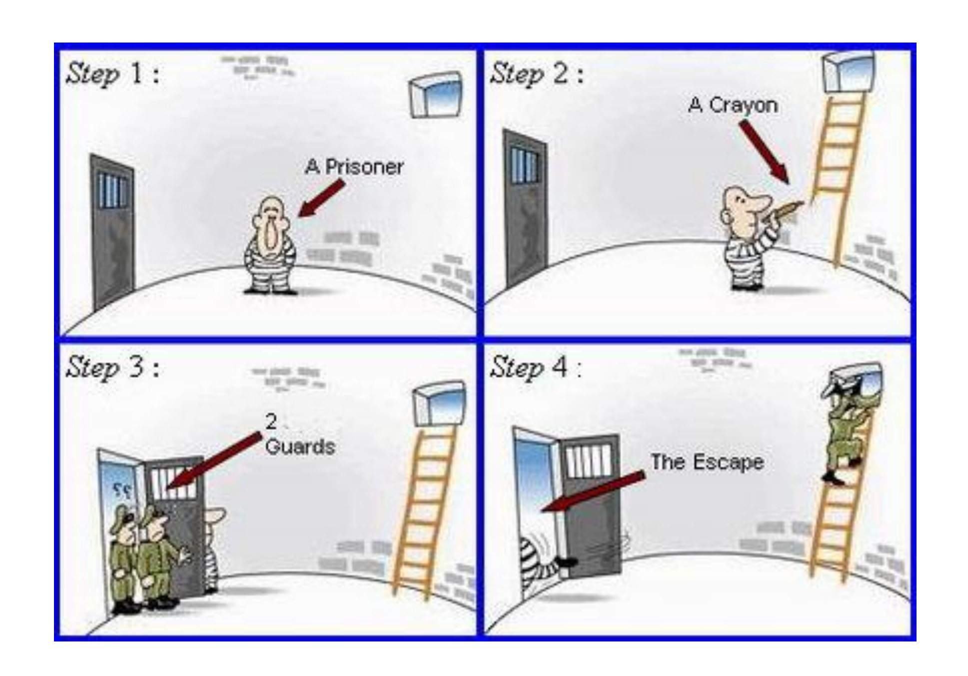
هكذا نحن جميعاً، نصاب بانفصامٍ تـامٍ عـن واقعنـا، ولا نـدرك الأبعـاد ولا الأحـداث المحيطـة، لا نتـألم لمصـاب الآخـرين – في الغالـب – أو نحـزن، برجماتيون حتى النخاع، إلا إذا أقحمنا حتف أنوفنا داخل تلك الدائرة، دائـرة الحدث أو المصيبة، عندها تنبثـق فينـا مشـاعر الإحسـاس، وتخالجنـا نبضـات العاطفة، أما إذا ضاقت الدائرة علينا، وخنقتنا، فإنها توقظنا من سـباتنا لنفيـق ونستجلب تلك الذكريات، نقلبهـا في أذهاننـا كيفمـا اتفـق، نسـتنجد بالمشـاعر لنعود إلى إنسانيتنا التي غرقت أو أغرقناها في لجج هذه الحياة ومشاغلها !

اقتربنا من وزارة الداخلية، وهنا سألني أحدهما أين تعمل ؟ قالها مبتسـماً في مكرٍ ! أشرت برأسي إلى الوزارة وأنا أرمقهـا مودعـاً، إذ لم أعـد إليهـا حتـى الساعة والحمد لله .

بعد رحيلنا اتصلت جارة بزوجتي قائلةً لها في شماتةٍ أو غبـاء : يقولـون إنهم عثروا عند زوجـك علـى ترسـانة أسـلحةٍ ؟ أجابتهـا أم أيـوب : لا وأنـتِ الصادقة، لقوه فاتحِ معسكر تدريبٍ في البيت !

* * * * * * * * *

عـلـيـشـة



في الطريق إلى "عليشة" انفصلت عنا دوريتا الشرطة، وأصـبحت وحيـداً بـين المخبرين، كنا نقطع مفازة الطريق تجاه هدفنا المنشود في صـمتٍ ثقيـلٍ للغايـة لا يخرمه إلا هدير محرك السيارة، وفجأةً ارتفـع رنـين هـاتفي المحمـول وكنـت أعلم من المتصل وحقيقة الاتصال، إذ كنت على موعدٍ مع مجموعةٍ مـن الـزملاء، للخروج عصر غـدٍ الخمـيس إلى منطقـةٍ صـحراويةٍ قريبـةٍ مـن مدينـة الريـاض

للاستجمام بالأجواء شبه الربيعية، واستنشاق رائحة المطر المختلط بالتراب، ولم أقدر على الرد على هاتفي لأنه صودر منذ البداية لتتبع اتصالات الفئة الضالة المضلة، أو للإيقاع بإرهابي تائه، قاده حظه العاثر للتواصل معي ولو بشكلٍ خاطئٍ !

قام المخبر المرافق بإغلاق هاتفي المحمول منهياً رنينه، وحصلت على شتائم تلك المجموعة فيما بعد، إذ أخبروني بعد خروجي من السجن أنهم قالوا غيبةً فيّ : إيه كعادته في التطنيش وإخلاف الموعد، ما يدع عنه طبائعه العرقوبية أبداً!

وصلنا إلى حي عليشة بمدينة الرياض، وهو بالمناسبة من الأحياء الأثيرة لدي، إذ درست فيه مرحلتي المتوسطة والثانوية القريبة جداً من المقر القديم لجهاز المباحث العامة بالرياض .

ولجنا إلى عالم الغموض الذي ينسج حوله أساطير الكتاب، وأكاذيب المجالس الخاصة، وهنا يمنع التصوير الوصفي الدقيق للدواعي الأمنية، لا مانع من تسمية بعض الغرف برموزٍ " أ،ب، ج " ولن أذكر أماكنها للحفاظ على خصوصية المكان بعيداً عن أعين المتطفلين والفضولين من القراء وغيرهم، ولأنه لا يحق لي أن أحدد مواقعها الإعرابية في الجملة الخبرية، فأقول : ولجنا المبنى الرئيسي، ومنه إلى الغرفة " أ " غرفة الفرز والاستقبال، وهناك جلست على كرسيٍ مقابل جهاز تلفازٍ في وضع التشغيل على قناة العربية، ربما لأن صاحبها

الملقب بالشيخ ! ينتمي إلى المملكة، فمن باب الولاء الوطني تم اختيارها من قبل الضابط، بديلاً عن قناة الجزيرة، قناة الفتنة !

وكنت أرى بعض موظفي وزارة الداخلية لا يكـادون يغيرونهـا في مكـاتبهم، غير أنني لمحـت أحـدهم يومـاً وقـد وضـع مؤشـر جهـاز الاسـتقبال علـى قنـاة الجزيرة خطئاً أو عمداً، فهممت أن أرفع به تقريراً لوجه الله تعالى !

كان الضابط أو الموظف، يرتشـف كوبـاً مـن الشـاي، وعلـى مكتبـه وضـعت صـحيفة أعتقـد أنهـا صـحيفة الريـاض، تلقفتهـا في تلقائيـةٍ ودونمـا اسـتئذان وشـرعت في قـراءة صـفحة المحليـات والحـوادث، حتـى اكتملـت عمليـة فـرز أغراضي .

أحضر الشباب لي ورقةً وقعت عليها دون أن أقرأ ما فيها . وكانت تحتوي على وصفٍ لمضبوطاتي، وكنـت أجهـل حقيقـة السـيديات المصـادرة مـن منزلـي وأعدادها، لأنها كانت بالمئات، ولم يقم أحدهم بدس أي سـيديٍ واحـدٍ والحمـد لله، أو أتهم بشيءٍ لم أفعله والحق يقال، فأنا هنا مجرد راصدٍ مر بتجربةٍ أذكر ما وقع لي فيها بأمانةٍ، دونما زيادةٍ أو نقصان (ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا) ثم قالوا لي تفضل معنا انتهت ضيافتك هنا، أعتقد أنـني شـربت كوبـاً من الشاي لا أتذكر إلا طعمه في حلقي .

توجهنا عبر ممراتٍ وسلمٍ حديدي قادني إلى فناءٍ مفتوحٍ إلى الغرفة " ب " الاستقبال، وفيها بضعة موظفين أو مخبرين، يعملون على تلبية احتياجاتك الشخصية أو الطبيعية إن دعت الضرورة لذلك، بواسطة قرعك لباب الزنزانة أو الغرفة، سمها ما شئت، ولا يتأخرون في الغالب عن الإجابة وتلبية احتياجاتك إلا إذا كنت قليل الأدب طويل اللسان، بالعربي حماراً، أما إذا احترمت نفسك فإنهم يحترمونك في الجملة، هذا ما ظهر لي في هذه التجربة الشخصية .

استعرت مصحفاً من تلك الغرفة وسلمتهم جميع أمانتي، بطاقة أحوالٍ شخصيةٍ، رخصة قيادة، دراهم معدودةٍ، كتاب الموسوعة في الآداب الشرعية إلخ، وسجلت تلك المقتنيات الشخصية على أنها أمانات تسلم لي حال خروجي من السجن، يدون عليها اسمك ورقمك في السجن .

تم سؤالي بضعة أسئلةٍ عن وضعي الصحي، ودونوا أسماء الأدوية قبل مصادرتها، ليجرعونك إياها في الموعد، خوفاً عليك من نوبة جنون قد تنتابك على حين غفلةٍ من حراسٍ، فتبتلع تلك الأدوية دفعةً واحدةً مودياً بنفسك إلى الهاوية !

قلت لهم : عندي جهاز بيس ميكر " منظم ضربات قلبٍ" فقاموا بإيقاف مانع الإرسال في تلك الغرفة التي قطنتها وسكنتها لثلاثة أيامٍ فقط قبل أن أشحن إلى سجن الحائر، تم وضعي في الغرفة " ج " زنزانتي التي ما إن دلفت

إليها حتى جثوت على ركبتي أدعو ربي أن يربط على قلب أهلي وأن يجلي عني وعنهم هذه الباقعة .

كنت أجهل سبب اعتقالي حتى تلك اللحظة، إذ كنت على خلافٍ مع الإشراف في منتدى الساحة العربية وتوقفت طواعيةً عن كتابة الموضوعات السياسية وغير السياسية، ما خلا بضعة ردودٍ يتيمةٍ لا تسمن ولا تغني من رأيٍ!

بعدما فرغت من دعائي استلقيت نائماً، وكان القوم قد هيئوا لي فراشاً جديداً وقارورة مياهٍ صحيةٍ مختومةٍ بالشمع الأحمر علامةً على الجودة والنظافة، وقال لي المخبر : إن احتجت إلى شيئٍ فاطرق الباب نأتيك على الفور، نلبي لك ما تشاء قدر الاستطاعة .

نمت ما شاء الله لي أن أنام واستيقظت قبيل أذان العشاء، طرقت الباب فجاء المسؤول بعد دقائق، قلت له : أريد الوضوء للصلاة، توجه بي خارجاً إلى إحدى دورات المياه المرفقة بالمبنى، وكانت تلك الحركة كفيلة بأن أستنشق شيئاً من هواء الليل المنعش، إذ أن الطريق إلى دورات المياه، يمر بك عبر فناءٍ مفتوحٍ أمام الشمس والنور، كانت الأجواء غائمةً في الجملة ومائلة إلى البرودة المقبولة نسبياً، توضأت وعدت إلى نفس الغرفة، صليت المغرب ثم أذن لصلاة العشاء وكنت أسمع المساجد المحيطة بنا وهي ترفع صوت الحق بأن الله أكبر من كل شيءٍ في الوجود، وأعظم ما في الكون، صليت العشاء ثم حضر طعام العشاء.

كان هناك اهتمام فائق بطعام السجين – في تلك الحقبـة ولا أدري بعـدها – من ناحية النظافة والتنوع الغذائي، بروتينات، نشـويات، فيتامينـات، وصـدق أحد منافقي منتدى الساحة العربيـة، بـأن معتقلاتنـا تصـنف عالمياً علـى أنهـا فنادق الخمسة نجومٍ ! غير أنني أشبه السجن بأنه مزرعـة لتسـمين العجـول، ونشر ثقافة الكسل والنوم بين أفراد المجتمع، وكنا عجولاً بشريةً لا تملـك مـن زمام أمرها شيئاً !

أكلت بضعة لقيماتٍ لم أجد لمفعولها طعماً، حيث ركـبني الهـم، وغشـاني الحزن، ودبت في نفسي الحيرة، تلوت شيئاً من القـرآن وقـد انقـدح في خـاطري شطر من بيتٍ لقصيدةٍ طويلةٍ بعنوان : رسالة في ليلـة التنفيـذ، للشـاعر المصـري هاشم الرفاعي يرحمه الله، أحفظ أكثر أبياتها، إذ يقول مطلعها :

أبتاه ماذا قد يخط بناني – والحبل والجلاد ينتظراني

أما البيت المقصود فهو قول الشاعر :

ويهدني ألمي فأنشد راحتي – في بضع آياتٍ من القرآن

بعد قراءة ما تيسر من القرآن، صليت الوتر وحاولـت استجلاب النـوم وأنـا أفكر في طبيعة التهمة التي جاءت برئاسة الطيران المدني إلى مسكني !؟ وشـاية من سنكوحٍ مفصول من عمله ؟ اتصال مريب وصـل عـن طريـق الخطـأ لمسـكني ؟

إرهابي سلم على جار صديقي قبل خمسين سنة !؟ بن لادن أشار إلى الحي في إحدى خطبه ؟ كارلوس ذكرني بخيرٍ في سجنه بفرنسا ؟ أحمد جبريل أرسل لي تحياته ؟ أبو نضال أشاد بإحدى مقالاتي ؟ أيمن الظواهري بايعني، القذافي أرسل لي باقة أزهارٍ !.... الله أعلم .

حلت عليّ السكينة ونمت ما شاء الله لي أن أنام لأستيقظ بعد ساعاتٍ وقد غلبني ألم في عضلة قلبي، تذكرت أنني لم أتناول دوائي هذا اليوم، بل الأسوء من ذلك لم أحضره معي، نسيته في البيت !

طرقت الباب وجاء المخبر على الصوت، قلت له : عندي مشكلة في قلبي، تفاصيلها كيت وكيت، قال لي : انتظر قليلاً ثم غاب عن الوعي، أقصد غاب قليلاً فنحن لا ننسج حكاية فيلمٍ مصريٍ هنا ! عاد المخبر وقال لي : تفضل معي رافقني .

ذهبنا إلى الغرفة " مـ " اختصاراً لكلمة مستشفى، وهناك قابلت سعادة الطبيب، رجل أقرع تلمع صلعته تحت نور المصباح، ضئيل الحجم، في الخمسين من عمره تقريباً، ذكرني بمخرج أفلام الرعب البريطاني الأمريكي " ألفريد هتشكوك" باكستاني الجنسية، سلمت عليه ولم أسمع لإجابته ركزاً، ظننته جثةً هامدةً أو مخدراً أو معتقلاً مثلي ! ربما كان سجيناً يقدم طباً شعبياً من فئة عطارة العجب العجاب، بسوق حجاب ؟!

لكنه رد علي في الحقيقة سراً، اعتقدت أنه ممن سرت إليه عدوى التصنيف الحزبي فظن والظن أكذب الحديث، أنني أعمل في وزارة الخارجية " يعني خارجي" من الجماعة إياهم اللي بيكفروا الناس بالكبيرة ! غير أنني اكتشفت أن هذا طبعه، التحدث همساً " هس بس "

قلت له أعراض الشكوى، فقام مشكوراً بوضع سماعته على قلبي، ولم أتذكر في هذا الموقف قصيدة أحمد مطر : جس الطبيب خافقي وقال لي : هل ها هنا الألم !؟

بعد الفراغ من عملية الفحص غير الدقيق، قال لي بصوته الشبيه بفحيح أفعى أصابتها فأس فلاحٍ فاحتضرت : هازا ممكن إنتا صديق، فيه شوية توتر، علشان إنتا في يجي هنا أوليشة " عليشة " هزا أوليشة ما في كويس، ممكن هزا توتر فيه سوي شوية ألم، فيه إنتا كلب " قلب " إنتا قلب فيه شوية مشكل كتير صديق، كلو نفر سعودي قرقر كتير !

وبما أن س + ص = الدالة التاسعة من قانون نيوتن العاشر، والتي تقول : إن الذي أمامي طبيب بيطري متخصص في فحص قفا الصراصير، فإنني هممت أن أصفع السيد هازا على قرعته تلك دون أن أقول له لمازا !

ثم أكمل تشخيصه الخطير بقوله : أنا فيه أكتب الحين شوية حبوب هروين، أقصد منومة، علشان إنتا فيه نوم شوية، يمكن الله يفتح عليك وتشوف

بياز ثلج وشوية أقزام سبعة، طراز بابا سنفور ! وأعطى الأخ المرافق لي حبيتين من حبوب الكيبتاجون الممنوعة شرعاً وعقلاً ! فقام الأخ المخبر بوضعها داخل كيسٍ أبيض من أكياس وزارة الصحة .

كدت أن أقول له : حبيبي غلام علي بابا، تراني ناسي دوائي في البيت، والحبتين هازا حطها في فتحتي منخريك الشبهين بخياشيم الدولفين ! لكنني لذت بصمتي، ثم أردف سعادة البروفيسور : بأنه سيكتب تقريراً يحيلني فيه إلى الطبيب المناوب في الفترة الصباحية .

شكرته بحرارة، وقلت له : ممنون أخي الفاضل عزرائيل !

عدت إلى زنزانتي لا ألوي على شيءٍ وأنا أقول : شكلها خربانة خربانة، ما دام الدعوى فيها هزا ومازا، إلى الله المشتكى، أسلمت نفسي لمصيري فحلت عليّ سكينة ربي، ومن فضل الله ورحمته عليّ أنني نمت في تلك الليلة دون تناول ذلك الشيء المسمى بهازا !

أيقظني المخبرون بعد أن أسفر النهار جداً، واعتذروا لي بأنهم نسوني، ذهبت إلى دورة المياه، توضأت للفجر، وقبل أن أدخل زنزانتي قام أحدهم وصفد قدماي بقيدٍ يشبه القيود التي يضعونها في قدم الفيل، يمكنكم رؤيتها في حديقة الحيوان !

اعتذر لي بأنها أوامر المصلحة، قلت له : يا خوي من يوم ما دخلتم وأنـتم جالسين تعتذرون ! أنتم لا تدينون لي بشيءٍ وشكراً على كل حالٍ .

صليت الفجر وتلوت شيئاً من القرآن واستجلبت النـوم ونمـت حتـى حلـت ساعة الإفطار، وكان الإفطار فولاً وحليباً وتمراً، تذكرت حينهـا مقولـةً للشـيخ عبد الحميد كشك الله يرحمه عندما ضُيِّف بصحن فولٍ في السجن الحربي بمصر، أيام السفاح الإرهابي الاشتراكي عبد الناصر أحرق الله قبره وقبر من نحا نحوه، قال الشيخ : وجاءوا لنا بفول مسوس، أستغفر الله العظيم، أقصد سوس مفول ! غير أن فولنا كان نظيفاً والحمد لله .

بعد الإفطار، وهي لقيماتٍ يقمن الصلب لا إرب لي فيها، انشغلت بالتفكير والتأمل في واقع الحال وفي هذه الزنزانة الغريبة، حتى جاء أحدهم واقتادني إلى الغرفة " ف " وهناك قام مخبر آخـر – أو موظـف – بأخـذ بصـماتي وفـتح لـي ملفاً، صوّرت من جميع الجهات وكـان شـعر رأسـي أشـعثاً لم أقـم بترجيلـه أو ضبطه، كانت حالتي تشبه حالة فارٍ من العدالة استوطن غاراً أو كوخاً مهجـوراً لأعوامٍ!

بعد عملية التصوير تلك أصبحت ولأول مرةٍ ملغي الاسم مجهـول الهويـة، إذ استبدل اسمي برقمٍ يشبه أرقام لوحات السـيارات ٩٢٩ أو رقمـاً مقاربـاً لـه، وقد تعطى رقماً يشبه رقم الدوريات والشرطة ٩٩٩ فتتصور نفسك شرطياً تطارد اللصوص والعابثين وأرباب السوابق !

يضاف إلى جملة عنتك أثناء عملية التحرك بـذلك القيـد المحكـم، مرحلـة التدرب على توازن المشي كبهلوانٍ أو مهرجٍ، يتهادى خيلاء المريدين، إذ لا بـد لك من ضبط خطواتك بكل عنايةٍ وحذرٍ حتى تتمكن من إجادة المشي بذلك القيـد وتلك الأصفاد، مع أنني والحق يقال : لم أستوعب فلسـفة تصـفيد المـتهم داخـل غرفةٍ موصدةٍ عليه من الخارج ؟!

ولكنـها تعليمـات المصـلحة، والمصـلحة تقتضـي تصـفيدك أيهـا المصـفد، ولا اعـتراض علـى تحقيـق المصـلحة، لأن جلـب المصـالح مقـدم علـى درء المفاسـد ! والعكس هو الأصح، فدرأ المفاسـد مقـدم علـى جلـب المصـالح . لكنـهـا تعليمـات المصلحة يا قوم، وكل مصلحة وأنتم بخيرٍ .

وتكتمل فصول المأساة إذا نزع القيد من قدمك، إذ تحتـاج إلى عمليـة تـدريبٍ أخرى لتسترد خطواتك الطبيعية كبقية خلق الله !

* * * * * * * * *

وتحقق السيناريو



في معرض بعض الردود والمداخلات التي وردتني على هذه السلسلة التي سطرتها، انبرى أحدهم متعجباً بقوله : هذا الوصف لعليشة يختلف كثيراً عن الوصف الذي سمعنا به من أفواه الناس ؟!

وهنا قد يقع الخلط أو اللبس لدى الكثيرين، فأنا مجرد راصدٍ لتجربةٍ شخصيةٍ مررت بها، لست مسؤولاً عن تجارب الآخرين، أو ما سمعه الأخ الكاتب من أفواه بعض المعتقلين أو قرأ عنه، وكذلك الحال بالنسبة لغيري ممن أوقعه حظه العاثر في ضيافة القوم .

ومع أنني رصدت هذه الأحداث بناءً على رؤيةٍ شخصيةٍ معززة بتجربة ذاتية، فإنني سمعت أيضاً عن بعض التجاوزات، سمعتها مشافهةً من أصحابها، وكان بعضها مؤلم للغاية، بل إنني تمنيت أنني ما سمعتها والله المستعان، وسمعت أيضاً أنه تم معاقبة بعض المسيئين لاستخدام السلطة من ضباطٍ وأفراد، كما سمعت أيضاً عن غض الطرف أو إهمالٍ لمحاسبة بعض المتجاوزين، إما لضعف الأدلة التي سيقت في حقهم، أو لفتور صاحب القضية عن المطالبة بحقه ومتابعة قضيته، أو لأن ذلك المخطئ استطاع أن يفلت من العقاب بطريقةٍ ما، وعلى أية حال، ينبغي أن يفرق الأخ المعترض بين ما يلي .

أولاً : سنوات الاعتقال تتفاوت في الشدة، فعام ١٤٢٥هـ مثلاً يختلف عن عام ١٤٢٠هـ، وعام ١٤٢٠هـ يختلف عن عام ١٤١٠هـ وعليشة مثلاً تختلف عن سجن الرويس في جدة، وقد يختلف الموقوف في مدينة الرياض عن موقوفٍ آخر في مدينة أبها أو الجوف أو القصيم وقس على ذلك، ثم إن الموقوفين في الأصل مقامات، والناس أجناس، فهناك موقوف بتهمة سب الحكومة، وهناك موقوف آخر بتهمة التخطيط للقيام بعمليةٍ إرهابية، وموقوف رابع أوقف بسبب جمعه للتبرعات لإحدى الفئات أو الطوائف أو الجماعات، وسابع أوقف لدوره في تفجير المحيا، وعاشر هرّب أسلحةً ومتفجراتٍ للمسؤولين عن تفجيرات الحمراء مثلاً، ومنحوس أوقف خطئاً وهكذا .

وحتى هذا الموقوف المتورط حتى أخمص قدميه في العمليات الإرهابية المباشرة، قد يتم التساهل معه إن أبدى تعاوناً مع المحققين، وانسابت منه الاعترافات كخرير الماء العذب، أما إذا أغلق مخه وتنّح أمام أسئلة المحققين وراوغ ولم يصدق فأعتقد والله أعلم – لأنني لم أمر بهذا الظرف شخصياً – أنه سيمر ببعض المراحل التي قرئنا عنها في حواديت ألف ليلة وليلة، من إجلاسٍ على خوازيق، وسملٍ لأعينٍ، وصفعٍ لخدٍ، وخلعٍ لكتفٍ، وفرم للحم، وخلع لكتف، هذه هي وجهة نظري والله تعالى أعلم .

بل حتى الزنازين درجات، فبعض الموقفين يتم تخصيص فلل لهم بجميع منافعها، تلفاز متعدد القنوات، صحف، هاتف، وله الحق في طلب الطعام من خارج السجن، ولا أريد أن أسمي من حظي بمثل هذا الشرف لأنني أعرفه شخصياً، وبعضهم يتم إيقافهم في غرفٍ نظيفةٍ فسيحةٍ كما حصل لمحدثكم، وطائفة يتم وضعها في سجنٍ جماعي، وخامسة يتم وضعها في الحمام، تبعاً لجريمتها وتجاوزاتها ؟

أورد زيد من الناس مقولة : كيف استطعت النوم في ظل هذه الأجواء المتوترة، لا شك أنك رجل قوي !؟

لا... الأمر غاية في البساطة، ولا يحتاج إلى قوةٍ أو مزيد شجاعةٍ، إما أن تنسطل وتنام ملئ جفنيك مثل الطبل، قبل أن يأتي يوم أو ساعة لا تستطيع النوم فيها، وإما أن تصاب بالهذيان أو انهيارٍ عصبيٍ بسبب كثرة التفكير في قضيتك .

ولأنني طورت نظريةً جديدةً في فن إدارة الأزمات، اسميتها انسطل قبل أن تضمحل ! فإنني أوصيكم ونفسي وجميع الإرهابيين والقتلة أن يناموا ملئ جفونهم، ولا يستعجلوا على أرزاقهم من تحقيقٍ أو تعذيبٍ، خلك مثل البعير، يشرب كميةً هائلةً من المياه، ويقوم بتخزينها في معدته استعداداً لقطع مفازة الصحراء، كذلك قم بتخزين ما يكفيك من النوم داخل تلك الكرة التي تحملها فوق كتفيك، والتي يطلقون عليها مجازاً اسم رأسٍ، ففي النوم هروب من الواقع المرير، وقد تحلم بالفرج، وربما يحصل الأخ النائم على معجزته، فينام في السجن ليستيقظ من هذا الحلم اللعين، ليجد أن ما مر به مجرد أضغاث أحلامٍ فقط، وأنه لم يقبض عليه منذ الأساس !

وقد قلت لنفسي وأنا أهم بالنوم في أول ليلةٍ لي في تلك الزنزانة، ربما كنت أحلم ولا شك في ذلك، والآن سأنام وأستيقظ لأجد نفسي أنني كنت فعلاً غارقاً في النوم !

والشاعر يقول :

ناموا ولا تستيقظوا – ما فاز إلا النوم

ودونالد رامز " زفت " وزير الدفاع الأمريكـي السـابق، مجـرم الحـرب الـدولي المشهور، وصف العرب والخليجيين والسعوديين على وجه الخصوص بـالخمول والكسل في محاضرةٍ له، عودوا إلى موقع الـ **BBC** والطريـف في الأمـر أن هـذا الأمريكي الحقير الواطي، بعد أن سمسر على نفط العـراق والمنطقـة وشـبع مـالاً وذبحاً ونحراً في عباد الله، مـع ارتبـاط اسمـه بأوسـخ فضـيحةٍ في القـرن الواحـد والعشرين،سجن أبي غريب، رمانـا بالكسـل والخمـول، وقبحـه الله مـن سـفاحٍ صادق، فنحن شعوب تعشق الخمول والكسل والنوم .

كنت أنام، وأحاول أن آكل لأنام، أو أقرأ القرآن لأنام، وأسـتيقظ مـن النـوم لأنام، وأنام بين النوم ! ولوهلةٍ تمنيت أن أكون دباً قطبياً لأنام أيضاً، ولو لفصلٍ كاملٍ هذه المرة من فصول السنة الأربعة، وأنصحكم إن عجزتم عن النوم يوماً مـا أثناء مروركم بظرفٍ عصـيبٍ أو باقعـةٍ مدلهمـةٍ، فحـاولوا أن تتنـاوموا، وإن لم ينجح الأمر فلا مانع من خبط رؤوسكم بأقرب جدارٍ حتى تنسطلوا لتناموا نومـاً هانئاً، وتحلموا أحلاماً سعيدةً . ولا مانع من استخدام أي وسيلةٍ كانـت للنـوم، حتى لو استدعى الأمر تناول جرعةٍ من حشيشٍ والعياذ بالله، المهم أن تنام .

بعد عملية فتح الملف لدى المباحث في مركز عليشة الأمني، تم اقتيادي إلى الطبيب المناوب في الفترة الصباحية، كان كثيف الشعر عكس الأخ عزرائيل، طبيب المساء سيء التشخيص السيد هازا ولمازا، قال لي بروفيسور الفترة الصباحية : سأطلب نقلك إلى المستشفى، ما ودنا نتورط معاك بسبب مشاكلك الصحية المتعددة ! " الترجمة مني طبعاً "

قلت له : شكراً لك أخي الفاضل ريكاردو، سحنته تشبه مواطني أمريكا اللاتينية، رفائيل وريكاردو وشافيز !

عدت إلى زنزانتي ونمت أيضاً، واللي مو عاجبه هذا الكلام، فليغلق هذا الكتاب ويهرب إلى النوم ولا يعذلني .

أصبح جسدي أكثر تقبلاً للنوم من ذي قبل، المشكلة أنني كنت أستيقظ فأجد نفسي في السجن، يعني الدعوة كابوساً حقيقياً وليست حلماً، إذاً هو أمر متحقق وواقع !

ولم أتخيل أنني حققت إحدى أخبث السيناريوهات التي رسمتها من قبل على شكل قصةٍ ساخرةٍ قديمة، ووضعتها في منتدى الساحة العربية، وكانت بعنوان " عاجل مداهمة منزل كاتبٍ من كتاب الساحة العربية، من قبل زوار الليل " أستأذنكم في وضعها كفترة استراحةٍ من رتم كتابة هذه المذكرات .

===========

(عاجل مداهمة منزل كاتبٍ من كتاب الساحة العربية، من قبل زوار الليل)

رئيس المجموعة : تم تحديد موقع بث إشارة الهدف المنشود صباح هذا اليوم وحانت ساعة الصفر بالنسبة إلينا جميعاً، لقد أثمرت عملية المتابعة والمراقبة المضنية عن تحديد موقع بث الإشارة، لا بد أن تنفذ عملية المداهمة بمنتهى الدقة والحرص والحذر الشديد ولن أسمح لأحدٍ منكم أن يقع في خطأٍ واحدٍ، الخطأ غير مقبولٍ البتة ولا مكان له في قاموسي .

المعاون الأول : اطمئن يا سيدي، لن نخذلك هذه المرة إن شاء الله كما فعلت المجموعة السابقة، سنرفع رأسك ورأس الفريق عالياً، لقد قمنا بتحديد موقع الاتصال الذي يستعين به الهدف لوضع مقالاته السياسية في " منتدى الساحة العربية " ولم يتبقى لنا سوى رصد الشارع والمنزل الذي تخرج منه تلك الإشارة الخبيثة، ومن ثم المداهمة .

رئيس المجموعة : باعتباري المسؤول الأول عن هذه المداهمة الخطيرة، أعلن لكم أيها السادة الكرام بدأ عملية تطويق ومداهمة الكاتب في منزله بشكلٍ رسمي، وبمباركةٍ من قبل المسؤولين وصناع القرار في الجماعة !

سيروا على بركة الله .

انطلقت المجموعة المكونة من ستة أشخاصٍ لتنفيذ عملية المداهمة لشقة الكاتب المجهول في منتدى الساحة العربية، كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، خيم صمت ثقيل على تلك الوجوه الكالحة المزودة بمعداتها الإليكترونية الدقيقة والمتطورة للغاية من أجهزة الحاسوب المحمولة وأجهزة اللاسلكي، وكان يتخلل ذلك الصمت المخيف المرعب أصوات الذبذبات المنبعثة من جهاز المودم الخاص بالكاتب المجهول، ذبذبات من نوع " شيييبي واط واط واط، طيطا طيطا طيطا " الأصوات المألوفة التي نستمع إليها جميعاً عندما نقوم بالاتصال بعالم النت الغريب، أو عندما نرفع سماعة الهاتف ونفاجئ بوجود اتصالٍ بالنت . " الدايل أب "

قطع حبل تأملات تلك المجموعة سؤال ساذج ألقاه أحدهم قائلاً : الحين هذا الكاتب كم له يكتب في الساحة العربية ؟

أجابه الشخص الجالس بجواره : سنة ونصف، صحح المعاون الأول والمسؤول عن المجموعة الجواب : ثلاثة أعوامٍ ونصف !

صفير طويل وخافت من السائل الأول الذي أردف في استنكار : ثلاثة أعوامٍ وهو يتشم الحكومات العربية ويسخر بها وبدون مقابلٍ أو مكافئةٍ من أحدٍ ؟ وش الهدف من وراء هذا ؟

المعاون الأول : لكل كاتبٍ في المنتديات أو غير المنتـديات فلسـفته الخاصـة ورؤاه الشخصية في خربشاته وكتاباته، فمنهم من يكتب لمجرد الكتابة فقط أو لمجرد الظهور، وهذا إنسـان مـريض فكريـاً لا هـدف لـه مـن وراء الكتابـة إلا إشغال الوقت وتضييع وقت القراء والمتابعين للمنتدى، تجد نموذجاً أو اثنين في الساحة السياسية .

ومـنهم مـن يكتـب لكـي يفضـح نفسـه وجهلـه ووضـاعة خلقـه وقلـة أدبـه وانحطاطه الفكري فيه كم واحد في السياسـية بعـد، ومـنهم مـن كـان يهتـف في مدرجات التشجيع يشجع نادي النصر مـثلاً، ثـم تحـول بقـدرة قـادرٍ إلى رجـلٍ يفتي في مسائل الفكر والعقيدة والحيض والنفاس والجماعات الإسلامية وتسليك أنابيب الصرف الصحي " بتاع كله " وهذا النوع تجـده بكثـرةٍ في السـاحة الـتي كانت إسلاميةً من قبل .

وطائفـة كانـت تبيـع الفلافـل والمخـدرات وأصـبحت تنظّـر في المعتقـدات والسلوك والفكر الإنساني، هناك أربعة أشخاصٍ يكتبـون في السـاحة السياسـية ولهم ماضٍ أسوداً في بيع الفلافل المغشوشة بزيت محركات السيارات المستعملة!

وثالثة تكتب في الحب والغـرام والرومانسـية وهـو مغـازلجي رخـيص مـن مغازلجية منفوحة أو السبالة، تجد واحـداً أو اثـنين في المفتوحـة والعشـرات في

الأدبية، يذيل مقالاته التافهة الركيكة بإيميله الخاص، وربما وضع رقم هاتفه المحمول واسم أمه وأولاد جيرانه وهكذا .

خيم الصمت الثقيل مرةً أخرى على المجموعة الغارقة في متابعة مصدر الإشارة وتحديد مكان صدورها، لقد استغرقت هذه المتابعة عاماً كاملاً مضنياً، قبل أن تتمكن المجموعة من تحديد هدفها بشكلٍ جيدٍ .

صاح صاحب السؤال السانج الأول : الحين اللي يبي يسجل في الساحة العربية شلون يسوي ؟

رمقه المعاون الأول بنظرةٍ حارقةٍ مرعبةٍ وقال في صوتٍ يشبه حشرجة الأموات : تابع مصدر الإشارة حتى لا نفقدها وخلك من الفلسفة أحسن لك .

على بعد كيلو مترٍ واحدٍ من مجموعة المداهمة الأولى بقيادة المعاون الأول، كانت هناك فرقة أخرى محترفة للغاية في مجال الترصد والتتبع والمداهمة تغذ السير في مركبتها السوداء المظللة بالكامل نحو نفس الهدف، وكان قائد الفرقة رجلاً قاسي المظهر حاد النظرات قليل الكلام أو صاحب الكلمة الواحدة فقط، كانت تلك الفرقة مزودة بنفس المعدات التي تزودت بها تلك المجموعة غير أنها كانت تستعين بالأقمار الصناعية في عملية تتبع مصدر الإشارة .

قال قائد فرقة المداهمة في صوته المرعب الذي يشبه فحيح الأفعى : الشارع الأول بعد المفرق الثالث، قاطعه مساعده مصححاً لكن يا سيدي .... اسكته قائد الفرقة بكلمةٍ واحدةٍ فقط " انطم "

كانت السيارة السوداء المظللة بالكامل تشبه قبراً متحركاً لا يصدر منها أدنى صوتٍ، حتى صوت مودم الهدف " شيييي واط واط واط، طيطا طيطا طيطا " كان خافتاً للغاية لا يسمع، والسبب في هذا الصمت المرعب المخيف أن قائد الفرقة كان رجلاً يحب أن يقرض الشعر في ذلك الجو الإرهابي المخابراتي المخيف الثقيل، وكانت السيارة المظللة بالكامل وهسيس الأجهزة الإليكترونية إضافةً إلى عملية المداهمة عوامل هامةٍ جداً في انبثاق فكرة الأبيات الشعرية لقائد فرقة المداهمة، وتنسيقها على أوزان البحر الميت، وهو بحر من بحور الشعر النادرة جداً في عقول القتلة والإرهابيين من قوارض الشعر .

استرخى قائد الفرقة وبدأ يردد في صوتٍ خافتٍ أقرب ما يكون إلى الهمس :

هذا ابن شوقيٍ خالد يتبختر – في ساحة العرض الجميل ويزأر

أنا خالد أنا مسلم لو تعلموا – قد جئتكم بعصابةٍ لا تقهر

هذا أخي عبد الحميد زعيمنا – أنعم به من فارسٍ لا يقهر

وأخي عطاء جاء يحمل سيفه– أسد على الأعداء جاء مزمجر

قطع حبل أبياته وقال لنفسه في رعبٍ وخوفٍ وش جالس أقول أنا ؟ هذه أبيات قيلت في مدح قتلة الرئيس السادات، خالد الإسلامبولي وعبد الحميد عبد السلام وعطا طايل وحسين عباس، أعوذ بالله جاي أداهم وكر إرهابي وأقرض أبيات شعرٍ في مدح أحد كبار القتلة في القرن والعشرين ؟ المهم ما علينا قاتل الله قرض الشعر اللي بوديني في ستين ألف داهيةٍ .

قطع صاحب السؤال السانج حبل أفكار مجموعة المداهمة الأولى قائلاً في حماسةٍ شديدةٍ : شوفوا سليمان العيسى صاحب برنامج مع الناس واقف عند محطة نفط يبي يشتري من ميد ساندويتش جبن، رمقه المعاون الأول في غيظٍ شديدٍ وحنقٍ هائلٍ ثم صرخ في وجهه قائلاً : من وين جابتك أمك أنت ؟ من مستشفى الأمراض العقلية ؟

سليمان العيسى وساندويتش جبن وميد ونفط، وين شغال أنت ؟ في صحيفة الرياض ولا في صحيفة الوطن ولا في القناة الأولى مع الناس ؟ عندنا عملية مداهمة كبيرة وتتبع إليكتروني خطير للغاية على مدار عامٍ كاملٍ وتقول لي سليمان العيسى ؟ أقسم بالله لو تكلمت أي كلمةٍ بعد الآن فلا تلومن إلا نفسك .

توقفت المركبة فجأةً عند إحدى البنايات الضخمة في شارع الخزان بجنوب مدينة الرياض، وقال قائد المركبة للمعاون الأول لقد وصلنا إلى موقع الهدف وقد ازدادت قوة الإشارة وارتفعت حدتها عن السابق، المعـاون الأول علـى بركـة الله نبدأ عملية المداهمة، أيها السادة لا مكان للخطأ في هذه العملية .

دلف الجميع إلى العمارة الضخمة وشرعوا في الصعود إلى الأعلـى مسـتعينين بأجهزة تحديد الإشارة، وكلما صعدوا طابقاً ازدادت حدة الإشارة وقوتها .

وصلت المجموعة إلى الدور الخامس وتوقفت عند إحدى الشقق التي حملت بعناية اسم ...... طوقت المجموعة باب الشقة من الجهتين، ثم رفع المعـاون الأول ثلاثة أصابع في الهواء، خفض الأول وهو يرمق أفـراده ذات الـيمين وذات الشمال، خفض الإصبع الثاني، ثم خفض الثالث أتبع هذا الخفـض كسـر البـاب بضربةٍ قويةٍ من قدم المعاون الأول تلا ذلك عملية الاقتحام مع أصـوات صـرخاتٍ مرعبةٍ دخلت المجموعة إلى الغرفة الأولى كانت مجلساً فارغاً ثم الصـالة فغرفـة الأكل ثم غرفة النوم ثم الغرفة الأخيرة، إنها المكتبة، وهناك عثر على الهـدف منكباً على حاسوبه الشخصي وقد تجمدت الدماء في عروقه وهو يرمق المجموعة بمنتهى الرعب والخوف .

قال المعاون الأول : والله ووقعت ولا أحد سمى عليك ؟

أفاق الهدف من ذهوله وحاول إغلاق جهـازه الحاسـوبي في ردة فعـلٍ غريزيـةٍ ولكن هيهات، تم سحبه مع كرسيه إلى الخلف، وقام المبرمج الخاص بمجموعة المداهمـة بفـتح قائمـة المحفوظـات، ومجلـد ملفـات الإنترنـت المؤقتـة، وفـتح المستندات وبعض الملفات، ثم قال : إنه الهدف المنشود بعينه .لا شك في ذلك .

صرخ أفراد المجموعة صرخة النصر، وقاموا بمعانقة بعضـهم بعضـاً، ثـم سلموا علـى الكاتـب المـذهول وصـافحوه وعـانقوه، وقـال المعـاون الأول للكاتـب المذهول : أنا فلان بن فلانٍ أحد أبرز أعضاء جمعية .... للهاكر، ونحن من المعجبين بك وبمقالاتك الإبداعية، وقد قمنا بعملية التتبع لـك حتـى وصـلنا إلى منزلك لكي نزف إليك أسمى آيات التهاني والتبريكات والإعجاب بما خطته لنا أناملك الشريفة من نقدٍ بناءٍ وهادفٍ وجميلٍ وساخرٍ !

قال الكاتب المذهول : لم أفهم ؟؟ من أنتم ولم وكيف .

أعاد عليه المعاون الأول الجواب السابق، قاطعه الكاتب : إذاً أنتم لسـتم رجـال مباحث ؟

ضـحك الجميـع وقـال المعـاون الأول : كـلا بـل نحـن مجموعـة مـن الهـاكر المحترفين جئنا للتهنئة فقط، وقائـد مجموعتنـا طلـب منـا بشـكلٍ شخصـيٍ أن نوصل إليك سلامه وتحياته الحارة ويريد أن يحصل على توقيعك الشخصي على هذه الورقة، كما لا ننسى أن نخبرك بأن جميع الأضـرار الـتي ألحقناهـا ببـاب

المنزل سنقوم بإصلاحها على حسابنا الخاص، تابع إبداعاتك يا أستاذ واحذر من زوار الليل وخفف العيار شوية ماله داعي تضيع، صافحته المجموعة في احترامٍ شديد وحصلوا على توقيعه الخاص وكان آخر المصافحين صاحب السؤال السانج الذي قال للكاتب المشهور : أقول يا أستاذ اللي يبي يسجل في الساحة العربية شلون يسوي ؟

أجابه الكاتب : اسأل المحايد، مشرفها، يفتيك .

خرجت مجموعة الهاكر من تلك العمارة الضخمة وركبت سيارتها، وأثناء ركوبها السيارة الخاصة بها لفت نظرها سيارةً سوداء مضللة بالكامل تهم بالتوقف عند مدخل العمارة، ترجل منها ثلاثة أشخاصٍ .

دخل الثلاثة إلى تلك العمارة الضخمة مستعينين بجهاز تحديد الإشارة وشرعوا في الصعود إلى الأعلى حتى وصلوا إلى الطابق الخامس، وهناك قام قائد الفرقة برفع ثلاثة أصابع من يديه في الهواء خفض الأول ثم الثاني ثم الإصبع الثالث ورفس الباب بقوةٍ شديدةٍ سقط من قوتها على الأرض، لأن الباب كان مخلوعاً في الأصل، نهض القائد من تلك السقطة وقال لمرافقيه : إنه كمين احذرا، يبدو أن هذا الكاتب قد احتاط لأمره بشكلٍ جيدٍ .

قامت الفرقة بتفتيش البيت حتى وصلت إلى المكتبة، وهناك فتح الباب بقوةٍ ابتسم الكاتب على إثرها في وجه فرقة المداهمة وقال : معجبين أيضاً ؟ وين

الأوراق أوقع لكم ؟ أنا الكاتب فلان في الساحة السياسية وأشكر لكم تجشمكم للصعاب والمشاق حتى وصلتم إلي !

رمق قائد الفرقة مرافقيه في شكٍ وقال : تصفحوا جهازه وكونا على حذرٍ، سحب أحدهم الكاتب مع كرسيه وقام بفتح قائمة المحفوظات والمستندات، ثم قال نعم إنه هو بعينه .

ابتسم قائد الفرقة في فخرٍ وقال : عامان كاملان ونحن نترصدك أيها الحيوان، عامان كاملان مضنيان، صادروا جهاز حاسوبه وقوموا بتصفيد يديه وفتشوا المنزل !

قال الكاتب وقد استعت ابتسامته أكيد أنت تمزح ؟ الأخ من أي هاكر ؟

قال قائد الفرقة : من هاكر عليشة، دبوس يعني، مخبر بالمصري، جاسوس بالعربي، تحرك قدامي يا حيوان لا أبوك لا أبو أبوك !

قاطعه الكاتب في ذهولٍ ومرارة : والإصلاح اللي قال عنه محسن العواجي في برنامج الاتجاه المعاكس ؟

أجابه المخبر : في الحقيقة أنا أميل إلى رأي المعارض الدكتور المسعري القائل " لقد اختار العواجي أن يركب سفينةً غارقة" بالمناسبة اللي يبي يسجل في منتدى الساحة العربية وش يسوي ؟

أجابه الكاتب في غيظٍ وقرف أسأل " البربهاري "

= = = = = =

تحقق سيناريو هذه القصة التي كتبتها بتاريخ ٢٠٠٣/٧/١٣ في منتدى الساحة العربية، حيث دوهمت وتم اقتيادي كما مر معكم، وسألني المحقق الذي حقق معي هذا السؤال الطريف، ما الذي يصنعه من أراد التسجيل في الساحة العربية !!؟

* * * * * * * *

الفصل السادس

وانقضى اليوم الأول



عدت من مكتب الطبيب ريكاردو إلى غرفتي أو زنزانتي بعد أن سطر في حقي تقريراً طبياً طويلاً مفصلاً للغاية، مفاده بأن المعتقل الإرهابي المذكور، عبارة عن مستشفى متنقل من العلل والأمراض المزمنة، وأنه كهل في جسد شابٍ، وأعتقد أن أوصى بشحني بشكلٍ عاجلٍ إلى مستشفى قوى الأمن في مدينة الرياض .

دخلت زنزانتي بعد فتحي للملف عند الشباب وفحصي لدى طبيب نادي الشباب الرياضي، والنادي هنا بضميره شبه الإنساني يعود بطبيعة الحال على

الشباب الذين استضافوني في ذلك الموقع، قلت لكم في حلقةٍ سابقةٍ إنـني طـوّرت نظريةً جديدةً في فن إدارة الأزمات اسميتها " **انسطل قبل أن تضمحل** " وطبقتها بحذافيرها على نفسي كنوعٍ من التجربـة، والتجربـة خـير برهـانٍ علـى تـأقلم الإنسان مع المصاعب التي تعتريه والشدائد التي تلحق به، إنـه النـوم ولا شـيء سوى النوم .

لا أفيق من نومي إلا إذا لعبت أنامل سجاني في قفل غرفتي لإحضار الطعام، أو اصطحابي إلى دورات المياه للوضوء استعداداً للصـلاة، وإذا حـدث واسـتيقظت من نومي خطئاً فإنني أحاول الانسطال ثانيةً لأنفصم عن واقعي المرير .

تغديت أول وجبةٍ غداءٍ في مقر إقامتي الجديـد، وكانـت مكونـةً مـن اللحـم الطازج والأرز، عافت نفسي الطعام على جودته فالسجن سجن وإن كان في قصـرٍ مشيد! وسلوا إن شئتم " بابلو سـكوبار" مهـرب المخـدرات الكـولمبي الشـهير، الذي اتفق مع الحكومة الكلومبية أن يقبع في سجنٍ من اختياره ويكف شره عـن النـاس، وفي المقابـل لا تسـلمه السـلطات الكولمبيـة لأمريكـا، فاختـار مزرعتـه العامرة والتي تضم في جنباتها كافة أنـواع الملـذات الدنيويـة الـتي تخطـر علـى البال، بستان شاسع جميل بقصره الكبير، مع برك سباحة، وحديقة حيوانـات خاصة، وتلفاز بعدة قنوات، ووسائل ترفيه، بل وحتـى مـرقص وفتيـات ليـلٍ، وكان يقوم بتصفية خصـومه في تلـك المزرعـة، بتـواطئٍ تـامٍ مـع رجـال الشـرطة والجيش .

ومع هذا كله لم يطق سجنه الاختياري، ففر هارباً منه، لتبدأ عملية مطاردةٍ واسعةٍ له، أنهتها رصاصات رجال الأمن الكولمبي، فقتل طريداً برفقة حارسه الشخصي !

كنت أتناول تلك الوجبة الدسمة، لتنهمر – فجأةً – الأمطار بشكلٍ غزيرٍ، كنت أسمع صوت نقراتها على سطح المكيف، ولم أستوعب هطولها لأنني كنت غافلاً عن تلك الغيوم التي تجمعت، ذاهلاً عن ذلك الركام الجاثم على المدينة بسبب تسارع الأحداث التي عشتها !

قمت من مكاني وفحت النافذة ! وكانت زنزانتي تحتوي على نافذتين تطلان على فناء المقر، وإذا أردت أن أتفرج على شيءٍ في ذلك الفناء، فلا بد لي أن أتشعلق كقردٍ ماهرٍ لأتمكن من المشاهدة المتقطعة، وبما أن لياقتي كانت في الحضيض، فإنني كنت أتشعلق وأقفز، والنافذة ليست شديدة الارتفاع، بل تم طمس معالمها بصفائح من الفولاذ الحديدي لحجب مدى رؤيتك الأفقية لما يجري حولك، ومع أنني كنت أرى ما في الفناء وما في صالة الاستقبال أيضاً في رحلاتي المكوكية المتكررة أكثر من مرةٍ في اليوم، إلا أنه تعذر عليّ التفرج على ذلك الغيث المبارك الذي نزل .

ثم تذكرت أنني لا بد أن أستغل هذه الفرصة لتحقيق هدفٍ شخصيٍ ثمينٍ، فرصة هطول الأمطار للدعاء والتضرع إلى الله جل وعلا، فقد جاء في الأثر أن من مواطن إجابة الدعاء وقت هطول الأمطار، وبين الأذان والإقامة، وعند التحام

الصفوف .. إلخ . تلك المواطن التي يعرفها أكثركم، دعوت الله ما شاء لي أن أدعو وأحسنت الظن به سبحانه وتعالى، وأنا المفرط في حقه جل وعلا .

وبعد الفراغ من تلك الخلوة الروحانية التي أنزلت على قلبي السكينة والهدوء، كان أجمل شيءٍ فعلته بعدها، القفز إلى داخل فراشي الأثير ! معذرةً أنا عارف أن وضعكم متأزم هنا، ولكن قولوا لي بربكم : ما الذي يصنعه شخص زج به في زنزانةٍ انفراديةٍ ومنع من الكتب والأقلام والدفاتر والاتصال سوى النوم !؟

تقولون لي : قراءة القرآن والاستغفار والتسبيح والتحميد ! هذه الأعمال الفاضلة لا يزايد عليها، لكنها كبيرة إلا على الخاشعين، أسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم . في ذلك المكان يفتقد الخرّيت خشيته وخشوعه، فهو إنسان قبل كل شيءٍ، ثم من الذي يطيق إشغال كامل وقته بقراءة القرآن وذكر الله تعالى إلا من وفقه الله جل وعلا وألهمه ؟

وإذا كان غيري " كاتب في صحيفة الرياض في الوقت الحاضر " قد أصيب بانهيارٍ عصبيٍ تامٍ نقل على إثره إلى المستشفى في أول ليلةٍ سجن بها في سجن الحائر، وذلك في ذروة تطرفه وتشدده وتكفيره للمشائخ والحكومة، قبل أن يبيع النفيس بالخسيس، وينضوي تحت لواء إبليس، فمن يلومني في نومي !؟ إنه فن إدارة الأزمات الحديث .

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

قرأت يوماً أن أخطر سجين أجنبي على الأراضي الأمريكية، المدعو رامزي يوسف وهو أحد المسؤولين عن انفجار نيروبي، هذا الرجل حكم عليه في الولايات المتحدة الأمريكية بمئات السنوات داخل إحدى الزنازين الإنفرادية، في أعتى السجون الفيدرالية التي لا يمكن للنملة أن تهرب منها كما يقال !

ولن يخرج من تلك الزنزانة كما يقول سجانوه إلا إلى القبر !

يقول سجانه عن حالته : إنه ممنوع من التحدث مع الحراس، ممنوع من التحدث مع الناس، ممنوع من الخروج حتى من زنزانته، لا يزوره إلا محاميه فقط، ثم نقل هذه المعلومة الخطرة عنه حيث قال : لقد أعلن يوماً أنه تنصر واعتنق المسيحية " النصرانية " !

وبعيداً عن صحة الخبر من عدمه، فإنه إنسان بالدرجة الأولى مهما دبّر وخطط ونفذ، قد تدفعه لحظة حماسٍ إلى تنفيذ عمليةٍ ما، فإذا نفذها ولم تتشرب نفسه عن يقينٍ بجدوى ما قام به ولو كان خطئاً من وجهة نظرٍ شرعيةٍ، فإنه سيتداعى وسيكفر بجميع تلك القناعات وبأسرع مما تتخيلون ! بل ويعتنق فكراً أو ديانةً جديدةً، وسيكون فيلسوف زمانه، ونحرير دهره، ومفكر

مجتمعه، وقد تفتح له الصحف والقنوات أبوابها المشرعة، كتائبٍ من ذنبٍ عظيمٍ، وعائدٍ إلى صراط التنوير المستقيم !

كان خياري استراتيجياً في مرحلة الانتظار، النوم ولا شيء سوى النوم .

ومن باب الفائدة هناك قرية في دولة السودان الشقيق اسمها : كمل نومك ! وكنت أظن أن اسمها مجرد إشاعةٍ ألصقت زوراً وبهتاناً بالشعب السوداني الشقيق، إلا أن بعض الإخوة الزولة أثبتوا لي صحة تلك المعلومة، وأنها تقع في ولاية الجزيرة بالسودان ! ولا تهون مدينة كسلا بالسودان أيضاً !

على أية حالٍ استيقظت قبيل صلاة العشاء، وطرقت الباب لكي أتوضأ، جاء المخبر واصطحبني، وفي طريقي إلى الدورة التدريبية، أقصد إلى دورة المياه يقوم صاحبنا بالانفصال التام عني، أتوضأ هناك لأعود من نفس الطريق وأنا أرسف في قيودي وحيداً، بطيء الخطا كمجرم حربٍ عتيدٍ، لقد أكملت أربعاً وعشرين ساعةً في نادي الشباب الرياضي !

وفي منتصف المسافة إلى غرفتي وقبل أن ألجها، يلحق بي سعادته ليحكم إغلاقها ثانيةً عليّ، غير أنه في تلك الليلة استوقفني هو ومخبر آخر في منتصف المسافة، سألني سجاني ورفيقه يستمع : يا شيخ عندي سؤال ؟! ولم يدعني أجيبه بل أردف قائلاً : الحين هذا خويي يبي يجمع المغرب مع العشاء علشان نزول المطر ! – وكانت المساجد المجاورة قد جمعت العشاءين بفعل المطر الغزير

الذي انـهمر عصر اليوم الخميس – " اليوم التالي للاعتقال " وامتد بفضل الله إلى أذان المغرب) يجوز هذا ولا ما يجوز !؟

بغيت أقول له : والله ما أدري عنكم ! وش قصتكم أنتم ؟ تمسكون الواحد ثم تعتذرون منه، وفي اليوم الثاني تطلبون منه الفتيا، أخـاف بكـرة أصير مـأذون أنكحةٍ أو كاتب عدلٍ !؟

قلت موجهاً حديثي لصاحبه : يا أخـي أنـت لوحـدك هنـا في صـالة الاسـتقبال صح؟

قال : إيه .

قلت : أجل ليش تجمع الصلاة ؟

قال : السنة يا شيخ !

قلت : السنة الجمع في المساجد، وليس في مقر عملك أصلحك الله .

قال له سجاني : شفت ما قلت لك، لا تجلس تخربط !؟

صليت المغرب، وانتظرت حتـى دخـل وقـت العشـاء وصـليتها ثـم أوتـرت، تعشيت وتناولت دوائي الذي أحضـره لـي المخـبر، شـرعت في مراجعـة حفظـي لكلام الله حتى استوفيت المقدار الذي أتلوه كل يومٍ مـن غـير زيـادةٍ ولا نقصـانٍ، وذلك قبل دخولي للسجن، ثم أطفأت النور استعداداً للنوم، وقبـل أن أنـام قلـت لنفسي : يا ولد ليش ما تغير النظام اليوم !؟

استويت قاعداً وخطرت لي فكرة غريبة، بمـا أنـني مصـفد الأقـدام في هـذه الزنزانة المظلمة، فلا مانع من الاستفادة من هـذا الموقـف التراجيـدي في تـأليف مشهدٍ ميلودرامي !؟ يغير رتم اليوم على الأقل إلى رتمٍ جديدٍ، دب الحمـاس في جسدي . أمسكت تلك الأصفاد بكلتا يديّ واسترجعت أنشودةً قديمـةً أحفظهـا، يستلزمني قبل أن أشرع في أدائها أن أحدث نوعـاً مـن الجلبـة المعدنيـة، والـتي تحاكي عملية اقتياد أسيرٍ إلى السجن أو إلى منصة الإعدام، كما ورد في شريطها، وتجدون أمثال هذا المشهد أيضـاً في شـريط البواسـل لأبـي عبـد الملـك، في مطلـع القصيدة التي تقول :

من خلف قضبان الألم – والحزن في الصدر احتدم

وفعلاً بدأت أحرك سلسلة القيد بشـكلٍ عشـوائي يمنـةً ويسـرةً حتـى وصـلت بتلك الجلبة إلى النغمة المطلوبة، والتي قدحت شرارة الذكريات في عقلي فبدأت أنشد :

يا ظلام السجن خيم – إننا نهوى الظلام

وكانت النشيد ذا طابعٍ تأثيري على نفسي وروحي لحناً وأداءً ومعنـى، مـع اجترارٍ لذكرياتٍ قديمةٍ فيها من التأثيرات الإيمانيـة الكـثير الكـثير، تصـطدم كلمات القصيدة المغرقة في أملها الزائف، بجدران تلـك الغرفـة العاريـة إلا مـن أثاثٍ متواضع، محدثةً نوعاً من الصدى الحزين لإنسانٍ عاجزٍ عـن أداء أي شـيءٍ في مكانه ذلك، قد تخلى عنه الجميع حتف أنـوفهم، ورمتـه يـد الـردى أسـفل إحدى السلالم في فناءٍ شبه مهجورٍ لمبنى عتيقٍ .

هاجـت الـنفس وتـذكرت بنـاتي وعجـز والـدهن في عزلتـه، وعجـزهن في وحدتهن، تـهدج صوتي، ودمعت عيني في غـزارةٍ، لأنخـرط في بكـاءٍ مريـرٍ هـز وجداني بشكلٍ كاملٍ .

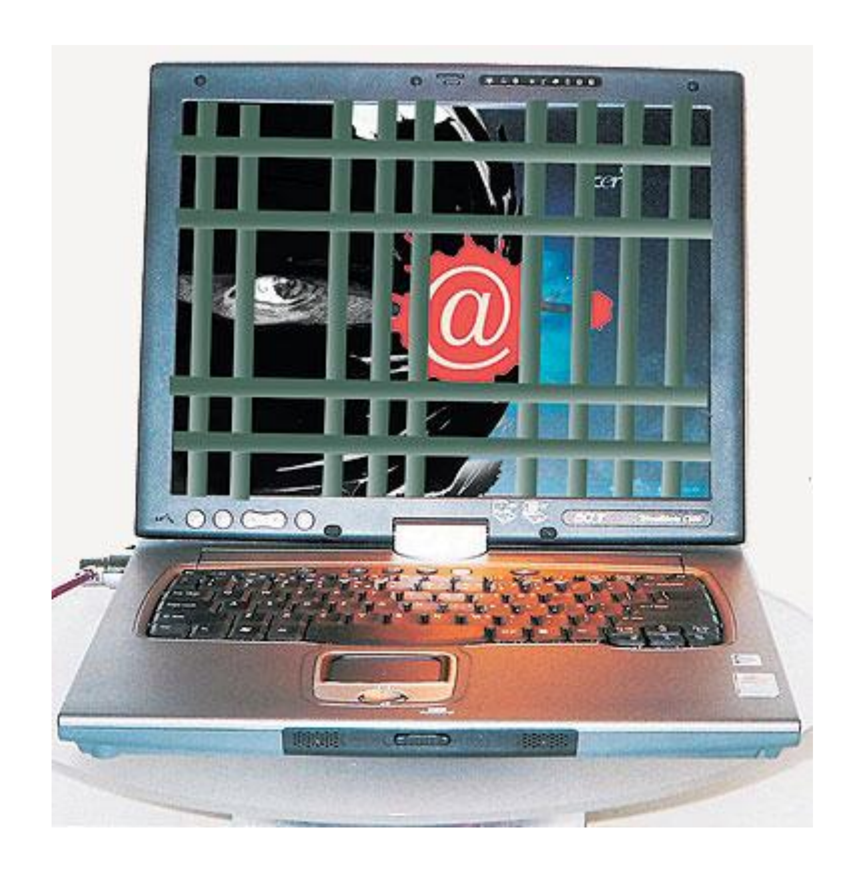
ما أضعف الإنسان إذا تعلق بأطفاله .

فسدت بقية ليلتي برمتها، واعترتني كآبة لازمتني حتى بعـد خروجـي مـن السجن، على لحظات فرحٍ متقطعةٍ بين الفينة والأخرى .

* * * * * * * * * *

الفصل السابع

التحقيق



استيقظت فجراً وقد ألقت كآبة البارحة علـيّ بظلالهـا، ولم يـتغير شـيء في جدول اعتقالي، فأنا أسير مابين زنـزانتي ودورة المياه كرقـاص السـاعة في رتمٍ رسمـه لـي سـجاني ببراعـةٍ، لا صحف، لا كتـب، لا مجـلات، لا مـذياع، لا

اتصالات خارجية مع أحدٍ إلا بعد الفراغ من التحقيق، لا حديث إلا في نطاق الضرورة .

طرقت الباب فجاء السجان، فتح لي الباب فتوجهت للدورة للوضوء، وكنت أتعمد أحياناً أن أبطئ في مشيتي لأستنشق مزيداً من هواء الصباح المنعش، ولم يكن يستعجلني، بل إذا رآني أبطأت افترق عني وهو يجزم يقيناً أنني لن أهرب، ولو فتح لي باب السجن على مصراعيه فلن أهرب حتى لا أضيف إلى ألقابي لقب المطلوب الأمني رقم كذا في قائمة وزارة الداخلية !

لفت نظري في دورة المياه مرآة مهمشةً على شكل مثلثٍ شبه مشوهٍ، تأملت فيها وجهاً بائساً لإنسانٍ أسيرٍ، خطت عليه ملامح الحيرة والحزن والحقد !

لم يطل بقائي هناك، فهي مأوىً للشياطين لا للأسارى، توضأت وخرجت أرسف في تلك الأغلال وأنا أرمق السماء وقد عانقها انبلاج فجرٍ جديدٍ بأفراحه وأتراحه، وكانت لدي عادة غريبة لازلت أقلبها داخل عقلي حتى الساعة، وهي عادة يغلب عليها طابع التشاؤم، إذ أسأل نفسي دائماً في كل يومٍ ما لم تعترني موجة نسيانٍ : من الذي سيموت هذا اليوم !؟ كم عمر ضحية هذا اليوم ؟ ما هي أسباب الوفاة !؟ وقد أضيف إليها بضعة أسئلةٍ من قبيل من سيتزوج ؟ من سيربح ؟ من سيرزق بولدٍ خلال هذا اليوم ؟

وكثيراً ما كنت أقف بمركبتي وأنا قادم من غرب الرياض، تحديداً من مكة مـروراً بمدينـة المزاحميـة قبـل أن تلـوح في أفـق الظـلام أضـواء مدينـة الريـاض الساطعة ، إذ يستطيع القـادم مـن الغـرب أن يـرى الأبعـاد شـبه الحقيقـة لهـذه المدينة الغريبة المبتلعة في جوفها حـوالي الأربعـة ملايـين إنسـانٍ، بمعاصـيهم وطاعاتـهم، بفشلهم وإنجازاتـهم، فأقف مأخوذاً بالمشهد أتأمل، ولا يقطع جمـال هذا المشهد الغريب إلا صوت المركبات المارقة بجواري، أو أضواء دورية شـرطةٍ تطفلت على خلوتي تلك !

إذن كان هذا هو السؤال الذي استفتحت به فجـر يـوم الجمعـة، وقـد ألقـي القبض عليّ كما مر معكم عصر يوم الأربعاء، وهو العصر الذي يعـني للكـثيرين منا حريةً مؤقتةً من ارتباط عملٍ أو دراسةٍ، لكنه يعني لي واقعةً مخيفـةً حتـى ساعة كتابة هذه الكلمات، بل وأبعد من ذلك، كثيراً ما يخيل لي أنني سـأخرج من منزلي لأداء صلاة العصر كما خرجت قبل ثلاثة أعوامٍ، لأفاجئ بالرنج روفر البيضاء قابعة في الركن الجنوبي الغربي من باب منزلي !

وكثيراً ما فكرت في الهجرة للخـارج حتـى تتلاشـى خيـوط هـذه العقـدة مـن ذاكرتي، وتـهيم أشباح ذلك اليوم العالقة في أعماق وجداني حتى اللحظة !

وصلت الزنزانة يتعقبني سجاني مـن خلفـي، ليـؤدي مهمتـه الـتي يتقاضـى لأجلها راتبه الشهري، مطعماً صغاره وأهل بيته من الحفـاظ علـى أمثـالي، ولم أرثيه كما رثى هاشم الرافعي سجانه

بقوله :

من كوة بالباب يرقب صيده – ويعود في أمن إلى الدوران

أنا لا أحس بأي حقدٍ نحوه – ماذا جنى فتمسه أضغاني

هو طيب الأخلاق مثلك يا أبي – لم يبد في ظمأٍ إلى العدوان

صليت الفجر وسبحت كما يسبح أي مسلمٍ متواضعاً في طاعته لربه، واسترجعت استيقاف المخبرين لي بالأمس، وسؤالهما لي عن حكم جمع صلاة العشائين، وعلى الرغم من بضاعتي المزجاة في العلم الشرعي، إلا إنني سألت نفسي : لماذا يحسن الآخرون بنا الظن ويلوذون بقشتنا الضعيفة في النجاة من معضلاتهم الشرعية ؟ كجمع الصلاة، أو الطلاق، والقراءة على المسوسين، وتفسير الأحلام !؟

ربطت ما جرى بقصةٍ أوردها شيخنا عبد الحميد كشك يرحمه الله في كتابه "قصة حياتي – أو ذكرياتي" الوهم مني، عندما اقترب منه ضابط يحمل رتبة رائدٍ، وطلب من الشيخ أن يستذكر له بضعة مسائل في الفرائض، لأن الأخ الضابط عنده اختبار ترقيةٍ بعد ساعاتٍ، ومن ضمن بنود ذلك الاختبار، أسئلةً في العلوم الشرعية على رأسها مادة الفرائض ! سفاح وخادم للطغيان يجهز نفسه لاختبارٍ في مادة الفرائض ؟!

يقول الشيخ : أجلسني بجانبه في سيارة نقل المساجين ولم يجلسني في الخلف مع بقية المعتقلين، فشرعت أشرح له تلك المادة اللذيذة حتى استوفيتها، ومن باب رد الجميل قام الضابط وأوصل الشيخ بيده إلى بوابة السجن !

كذلك ما ذكره صالح الورداني في كتابه " مذكرات سجينٍ سياسي في المعتقل، ثلاث سنواتٍ تحت التعذيب" أن بضعة أفرادٍ من الجماعة الإسلامية أقنعوا سجاناً من الزبانية، بأن اكتحال الرجل بالإثمد سنة ثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ورد في ذلك نص صحيح (اكتحلوا بالإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر) أو كما قال عليه الصلاة والسلام، والحديث مر معي في كتاب أبي عيسى الترمذي (شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام) الشاهد أن الحارس المسكين جاء في اليوم الثاني وقد اكتحل في كلتا عينيه بالإثمد .

فسأله كبار زبانية التعذيب في السجن عن هذا التصرف الغريب ؟ فقال : الجماعة السنية (هكذا يسمون) قالوا : إن الاكتحال سنةً عن النبي عليه الصلاة والسلام، فما كان من الضباط إلا أن أعطوه علقةً ساخنةً، وقذفوا به في المعتقل !

وكان الأولى بأولئك المعتقلين أن ينصحوه عن صحة عمله في الأصل، أو يوصونه بتصحيح المعتقد والمحافظة على الصلاة ! ولكن لله في خلقه شؤون .

قرأت شيئاً من القرآن وبدأت أستذكر شيئاً من القصائد التي أحفظهـا، علـى رأسها بيت شعرٍ لأحمد مطر يقول :

أكاد لشدة القهر أظن القهر – في أوطاننا يشكو من القهر

مرت أحداث هذا اليوم بسرعةٍ فائقةٍ بصلواته وخلواته وأكله ونومه، وكنـت أسأل نفسي حتى تلك الساعة ما هي التهمة ؟ لا أعتقد أنها يسيرة، هو اشـتباه خطير لا شك في ذلك . واسترجعت رحلتي القديمة لأفغانستان، هل في تفاصيلها شيء يهم السلطات في خضم حربها على ما يعرف بالإرهاب في الوقت الحاضر؟

كنت أفكر وأقطع تفكيري بترديد بيت الشعر الآنف الذكر حتى حان وقت النوم، أطفأت نور الزنزانة وشرعت في استجلاب النوم، وأثناء إغراقـي في تلـك المحاولة عبثت أصابع سجاني بقفل الباب، توجست شراً فأنا لم أطلبـه في هـذه الساعة، وقد جاء على غير ميعاده !

فتح الباب وقال : تفضل، المحقق يطلبك !

زاد توتري من مجهولٍ قادمٍ، ودعوت في نفسـي وأنـا أنهـض مـن فراشـي: اللهم إني أعـوذ بـك مـن شـرورهم، وأدرأ بـك اللـهم في نحـورهم، قـام سـعادة السجان بتصفيد يدي، ثم وضع عصابةً سوداء سخيفةً على بصري، تظهـر أكثـر مما تخفي ! حتى غشيتني بفعل سخافتها نوبة هيستيرية من ضحكةٍ كتمتها،

لكنني أغرقت في أدائي التمثيلي وتركته يقودني وأنا مصفد القدمين واليدين أرى من خلال عصابته أكثر مما تخفيه عني، وصلنا إلى مكتب التحقيق، وفك صاحبنا العصابة وقيد معصمي، وأبقى على قيد القدمين الذي أصبح أشبه ما يكون بالعهدة الحكومية !

تناهى إلى سمعي صوت رجلٍ آخر ما لبث أن دخل لأستيقن من شخصيته، إنه ضابط التحقيق، سلم عليّ وكان بشوش الوجه ذو ملامح متدينةٍ، ثوب قصير ولحية خفيفة، مظهره العام يشبه الشيخ الدكتور سعيد بن مسفر القحطاني، أما صوته فسبحان الله، هو الشيخ سعيد بن مسفر القحطاني عينه " فولة وانقسمت نصفين " على أن لحيته خفيفة ومشذبة .

كان غايةً في الأخلاق والدماثة والحياء، واستبشرت بمظهره العام خيراً، وقد جاء في الحديث المكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم " التمسوا الخير عند حسان الوجوه " الحديث موضوع . وقبل أن يشرع في حديثه معي : تخيلته سيلقي محاضرةً عن عذاب القبر، المحاضرات التي تميز بها الشيخ يحفظه الله .

قال لي : اطمئن موضوعك بسيط جداً وأيسر مما تتخيل !

فقلت له جزاك الله خيراً .

سألني : أنت تكتب في الإنترنت أليس كذلك !؟

أجبته : كنت أكتب، وكنت صادقاً إذ توقفت قبل أن يلقى عليّ القبض بأشهرٍ ما خلا بضعة ردودٍ لا تسمن ولا تغني من رأيٍ، قال : لأجل هذا نريد أن ندردش سوياً حيال هذه القضية اطمئن !

قلت له : الحين كل هذه الضجة والاعتقال لأجل الكتابة في الإنترنت !؟

قال : تقريباً !

بغيت أحط رجل على رجل لولا القيد الذي يجمعهما، وأصفق بيدي وأقول بأعلى صوت : بت يا نبوية، فيجيبني صوت أنثوي بعيد : نعمين يا معلمي، فأقول : اثنين قهوة على الريحة وشيشة للمعلم !

ما ودي أقول : الله يخرب بيت .... ولا خلونا ساكتين .

ابتدأ التحقيق بسؤالٍ عن الاسم والسن والعنوان والحالة الاجتماعية والمذهب، أسئلة روتينية، ثم ولجنا إلى الأعماق – لا شأن للقارئ ببعضها بطبيعة الحال، فحديثي معه يطوى ولا يروى – وعلى كوبٍ من اليانسون الساخن لي وللأخ المحقق امتدت الجلسة من الثانية عشر ونصف تقريباً، إلى قبيل أذان الفجر، سرحنا فيها كثيراً، وخرجنا من رتم التحقيق إلى الواقع والمحيط، تمازحنا، وتبادلنا المعلومات، وزودني بآخر الأخبار العالمية، وكان صادقاً مخلص النصيحة معي أميناً في عمله والله يتولى السرائر ؟

كان هذا هو الشوط الأول من المباراة، وأثناء حديثنا سألني عن شخصٍ أبغضه في الله وأمقته يكنى بأبي بشيرٍ النجدي، فقلت له : هذا يلقب في المنتدى " بدشير النجدي " وهو أحمق كذاب من الدرجة الأولى، بحيث لو قال لك : صباح الخير، فيلزمك أن تفتح النافذة لتتأكد من الوقت هل هو صباحاً أم مساءً !؟

لم يميزه الله تعالى بشيءٍ ما خلا تأويلات حشاشٍ من الطراز الأول للرؤى والمنامات والخزعبلات، وبطريقةٍ فجةٍ وممجوجةٍ، وكان مراسله في المنتدى المدعو " زهير النكهة " لُقب آنفاً " بزهير النكبة " فلو قصصت على الشيخ أبو دشير النجدي هذه الرؤيا : رأيت طاولةً سوداء اللون ذات قوائم أربعة، لقال لك : إن القوائم الأربعة ترمز إلى كراسي عروش الظالمين، وسواد لونها يدل على أنها نيلة سوداء، أو يا نهار اسود ومنيل بستين ألف نيلة، وهذا دليل على قرب زوال أمريكا ! باعتبارها نيلةً زرقاء !

أما إذا قلت له إنك رأيت حماراً يمشي على أربعة قوائم، لقال لك : المشي دليل على الزوال قال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمر مر السحاب) وبما أنها أربعة قوائم، فهذا دليل على أنها ترمز إلى كراسي العرش الطاغوتية، وهذه الكراسي ستضمحل وتتلاشى وتتدمر تماماً، لأنها تمشي !

وجرب أن تقول له : رأيت طفلاً يلعب بدراجته ذات الثلاث كفرات، فهذا المنام لا يعني له شيئاً، لكن إذا تحولت الدراجة بقدرة قادرٍ إلى دراجةٍ ناريةٍ

ذات دفعٍ رباعي، فسينبري للتأويل بأن الـدفع الربـاعي يرمـز إلى دفـع عـروش الظالمين والطواغيت إلى الهاوية على أيدي الأحرار .

وإذا كانت رؤياك معادلـة رياضـية عبثيـة كقولـك مـثلاً ١+١ = ٨ فلـن يعـدم شيخنا حيلةً، إذ سيقول : ٨ تقسيم ٢ باعتبـار أن الواحـد + واحـد = ٢، إذن تقسم الثمانية على ٢ فيكون النـاتج أربعـة، والأربعـة ترمـز إلى قـوائم العـرش أربعـة، باعتبـار قـانون التأويـل السـابق، أربعـة قـوائم هـي كرسـي العـرش، والزيادة غير المنطقية ل ١+١ = ٨ هي زيادة في النكال والعذاب والخزي من قبل الحكام للشعوب المغلوبة على أمرهـا، فـلا بـد أن يصـل هـذا العـذاب والنكـال بالشعب إلى عملية انقسامٍ داخليةٍ وهنا نقسم ال ٨ على اثنين فيكون النـاتج ٤ " أربعة قوائم يمشي عليها شيخنا أبو دشير " عليه من الله ما يستحق .

وكم تعلق برؤاه وخرابيطه السذج والأغبيـاء أثنـاء حصـار العـراق علـى يـد أمريكا الصليبية تمهيداً لغزوه، حتى سقط العراق ولم تسـقط خـزعبلات الشـيخ دشير النجدي إلا بسقوطه في السجن، وابتهامٍ خطيرٍ للغاية بلغني بعد خروجي من السجن .

اتفـق معـي المحقـق علـى أن هـذا الرجـل ممـن يجعـل الحلـيم حيرانـاً بخزعبلاته وأوهامه التي يقصها على الناس، ويروجها على البسطاء ! وفهمت

من ثنايا حديثه أو هكذا أرادني أن أفهم أنه من القاطنين لسجن عليشة، وأنه ضعيف النظر إضافةً إلى ضعف عقله ![1]

انتهى شطر التحقيق أو شارف على الانتهاء قبيل أذان الفجر، وقال لي المحقق : سأطلب نقلك إلى الحائر، فتوقيفك هناك أفضل من سجن عليشة ! ولا تقلق لأنني سأراك في القريب العاجل بعد فراغ الخبير من فحص أجهزتك وأقراصك الضوئية، صافحت المحقق بعدما انتهينا من هذه الجولة المؤقتة من التحقيق، وجاء على إثرها سجاني، ليعود بي من حيثما أتينا بنفس تلك الاجراءات غير المجدية بالنسبة لمن خاض غمارها .

دخلت الغرفة وسجدت لله شكراً، ثم جمعت متعلقاتي الشخصية تمهيداً للرحيل إلى سجن الحائر .

* * * * * * * *

[1] - أفرج عنه لاحقاً سنة ٢٠١١

إلـى الحـائـر



عدت بالأمس " ليلة السبت "[1] مـن وليمـة عـرسٍ لأحـد الأقـارب في جنـوب مدينة الرياض، وكنت متـأخراً في وصـولي للحـي الـذي أقطنـه، كانـت الساعة حوالي الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، ولفـت نظـري أثنـاء اقترابـي من المنزل، وجود مركبةٍ أمريكية الصنع من نوع فورد كروان فيكتوريـا متوقفـة في القسم الجنوبي الغربي من منزلي، نفس القسم الـذي تم شـحني مـن خلالـه داخل ذلك الجيب الأبيض، وجهـت مقدمـة سيارتي تجاهها وغمرتـها بنـور مصابيحي العالي، فوجئت بوجود مجهولٍ يحادث هـدفاً مـا مـن خـلال هاتفـه

---

[1] - ليلة كتابة هذا الفصل

النقال داخلها، اضطررت للدوران التكتيكـي حـول المسـكن والمسـجد وعـدت إلى تلك النقطة مسلطاً مصابيحي عليه مرةً أخرى، فما كان من الأخ المجهول إلا أن حرك مركبته من ذلك المكان لا يلوي على شيءٍ، الصراحة لعب الفأر في محـرك سيارتي !

من يكون هذا العاطل المتعطل عند حـائط مسـكني !؟ دبـوس لا سمـح الله ؟! طنب أم مسمار ؟! تائه أعجبه المسكن والحديقة ؟! حرامي، إرهابي إلخ.. !؟

دخلت المنزل وأنـا أفكـر فيـه وفي وقوفـه الغريـب، وقلـت لنفسـي : شـكلي سببت لهم شيئاً من صداع تطـور إلى صـراعٍ، وأن الجماعـة بصـدد المداهمـة مـرةً أخرى وهذه المرة بقوةٍ أخف، اثنين نفر لا غير، ولعل صاحب الكروان هو قائـد فرقة استطلاعيةٍ خفيفةٍ تمهيداً للغزوة المحتملة، ولأنني كنـت أغالـب الكـرى قلت لنفسي : لن تكـون المداهمـة إلا فجـراً بمشـيئة الله، لعلـي أظفـر أو أحظـى بقليل نومٍ، هكذا قدح أبو مرة في روعي هذه الوساوس عليه لعائن الله !

استيقظت فجراً ولم أجـد خـبراً ولا نبـأً، صـليت الفجـر ثـم انطلقـت لحـال سبيلي أوصل بنياتي لمدارسهن، وألوح بقبضة يديّ متوعداً بضعة سائقين رعنـاء تجـاوزوا الأعـراف والقـوانين الدوليـة في الحفـاظ علـى أمـن الطريـق وسـلامة السائقين.

عبثت أصابع سجاني في قفل الباب للمرة الثانية في ليلةٍ واحدةٍ، وكنت واقفاً انتظره داخل زنزانتي على أحر من الجمر، غلت يداي مـرةً أخـرى، وتسـلمت أماناتي من سـجن عليشـة، تمهيـداً لترحيلـها معـي إلى مقـر إقـامتي الجديـد، امتطيت مركبة تشبه – شكلاً لا مضـموناً – سـيارة إسـعاف، قامـت بنقلـي إلى سـجن الحـائر، فـتح لـي سـجاني مشـكوراً كـوة سـقف السـيارة قبـل انطلاقنـا لأستنشق ندى ما قبل أذان الفجر، وكانت السماء قـد شـرعت بـأمر الله في غسـل سخائم أجسادنا بقطراتٍ لؤلؤية اللون، تحركت المركبة من المقر الذي احتضنني ليومين تقريباً إلى سجن الحائر .

ولأنني أحفظ مدينة الرياض عن ظهر قلبٍ، فإنني كنـت أعـرف اتجاهـات المسير، خرجنا من منطقة عليشة مروراً بشارع العصّـارات والقريـب مـن شـارع الخزان، صعدت بي السـيارة الجسـور الحديديـة القديمـة قـرب مصـلحة الميـاه وكتابة العدل الثانية ومستشفى الرياض المركزي، ثم شقت بـي الجسـر المنفـرج إلى قسمين والملقب عند العامة بجسـر السـروال ! يهـبط بـك القسم الغربـي إلى مستشـفى الشميسـي فالبديعـة، ويأخـذك قسـمه الشـرقي إلى شـارع الجـزارين والسبالة الشهيرة بحي " الزبالة " ثم ولجنا طريق الملك فهـد إلى الحـائر الـذي حيرنا بأقسامه، بعد اختراقنا لشارع عسيرٍ قرب اللجنة العلمية للإفتاء !

امتلئت خياشيمي براوئح جنوب مدينة الريـاض السـامة "محطـة المعالجـة لمياه الصرف" فكان النزول الأخير من جسر شارع الفريان والانعطاف جنوباً إلى ورش تشليح السيارات المحطمة والقريبة مـن سـجن الحـائر، كـثيراً مـا كنـت

أخشى ذلك الطريق لسوئه وقدمه وضيقه، وقد وقعت فيه العشرات من الحوادث التي أودت بحياة ضحاياها .

كنت أقطع حبل تأملاتي – أكثر من مرةٍ – في مراقبة السماء الباكية بقطراتها، وتخيلتها تبكيني على وقعتي السوداء ! ولم استغل الموقف للدعاء هذه المرة، ربما لانسياب خشوعي فوق ذلك الطريق الخائب المخيف، حتى انعطفت بي سيارة السجن يميناً، لقد دخلنا منطقة المعتقل، وكنت أعرفها جيداً قبل عقدٍ ونصفٍ، وكثيراً ما كنت أغشاها في زياراتي المتكررة لإحدى الأندية الخاصة بركوب الخيول والسباحة، والتي كانت تستقطب سكان جنوب الرياض، ولا أدري، هل ما يزال ذلك النادي الفقير في تلك الناحية المقابلة للسجن، أم أقفل أبوابه وانتقل !؟

توقفت بنا مركبتنا أمام إحدى البوابات ولم أكن أبصر شيئاً، فأنا أسير لصندوقٍ حديديٍ ضخمٍ لونه أسود من الداخل، كسواد ليلتي تلك، يقفل عليّ من الخارج حتى لا أفكر في الهرب ! دخلت السيارة إلى سجن الحائر وسارت ما شاء الله لها أن تسير حتى توقفت عند مكانٍ مجهولٍ، فتح سجاني باب المعتقل المتنقل وساعدني على النزول من تلك السيارة، ثم قام بحل أصفاد يدي وأبقى على قيد قدمي .

دخلت سجن الحائر كمعتقلٍ وتم اقتيادي إلى غرفة تحقيق الشخصية، فتح لي ملف هناك " صرنا رد سجون" على قول الإخوة المصريين، ملف هنا وملف

هناك، أعتقد أنه ملف علاقي أخضر يشبه جرجيراً ذابلاً على مائدة مواطنٍ جائعٍ لوظيفةٍ أو لنافذة حرية !

هذا الملف الخائب يصنع في لبنان قبل أن تنتقل صناعته إلينا، صدّرنا لتلك الدويلة الطائفية المليارات، وصدّرت لنا ملفات علاقية خضراء اللون، تطوي بطالتنا وقضايانا الجنائية والسياسية !

كانت أماناتي – التي سلمتها في سجن عليشة من قبل – معيّ في يدي، وكنت أحملها داخل كيسٍ بلاستيكيٍ شفاف، أُخذت تلك المقتنيات وتم ترقيمها ثم وضعت في الأمانات مرةً أخرى، لكنها أمانات الحائر هذه المرة، قال لي أحد السجانين : تفضل إلى هذه الغرفة وانتقي منها ما تشاء من ملابس وأحذيةٍ، دخلت وبحثت عن ثوبٍ يناسب حجمي طولاً وعرضاً، وكذا بضعة ملابس داخلية " فنيلة ماركة حنتوش" وزنوبة من نوع زبيرية ! أجلكم الله .

لم تنفعني الثياب، كلها كانت صغيرة الحجم لست أدري لماذا !؟ هل لأن الإرهابيين في هذا الوطن المعطاء من فئة الأقزام السبعة !؟ إنني ألوم مؤسسة مكة الخيرية والتابعة لرابطة العالم الإسلامي على تقصيرها الشديد في توفير ثيابٍ ذات مقاساتٍ أكبر للسجناء، وهي المسؤولة عن تزويد السجن بتلك الملابس الضيقة في تلك الحقبة !

قال لي سجاني الجديد : لقد صدرت إلينا الأوامر بنقلك إلى مستشفى قوى الأمن، أنت معضلة صحية كبرى ! لم يطل بقائي في الحائر سوى ساعةً أو أكثر من فجرٍ يومٍ جديدٍ، ركبت سيارةً أخرى تشبه الأولى في كل شيءٍ ما خلا السائق المتهور، وانطلقنا على بركة الله عائدين من نفس الطريق ولكن إلى المستشفى هذه المرة .

كان قائد المركبة أرعناً للغاية في قيادته للمركبة، وكانت حركاته الحادة بالسيارة تجعلني أتشبث بقوةٍ بالمقابض الحديدية المبثوثة في زواياها، حتى وصلنا إلى المستشفى، وجدت حراسي في المستشفى قد شكلوا فريق استقبالٍ لي بكرسيٍ متحرك، جلست عليه ثم ولجنا إلى داخل المستشفى، صعدنا ما شاء الله لنا أن نصعد حتى وصلنا إلى الجناح المنشود، تم وضعي في غرفةٍ من غرف المستشفى المعزولة تماماً عن بقية غرف المرضى، وهناك حلت جميع قيودي، مع أن سريري يزخر بشتى صنوف القيود، قيد للأقدام، وآخر للأيدي في حال التفكير في إحداث بلبلةٍ أو قلة أدبٍ ما .

عرض عليّ الأخ السجان خدماته في هذا القسم بقوله: إن احتجت إلى أي شيءٍ فما عليك إلا التلويح بيدك الكريمة إلى هذه الكاميرا، وكانت هناك كميرا في زاوية الغرفة تراقبني على مدار الأربع والعشرين ساعة، كانت الغرفة نظيفة للغاية، ويتم التحكم بسريرها بواسطة الكهرباء مثل أي سريرٍ من أسرة المستشفى، باختصارٍ شديدٍ، خدمة خمسة نجوم كما قال أحد منافقي القرن العشرين في وطننا، سجنه الله في الدارين .

صليت الفجر بعد أن توضأت داخل دورة المياه الملحقة بالغرفة، وتم تزويدي بمنشفةٍ نظيفةٍ وجميع أدوات الاستحمام، أُخذت ملابسي للغسيل، ولم أمكث في هذه الغرفة إلا نصف ساعةٍ فقط لأنقل بعدها للغرفة المجاورة بحكم أن غرفتي هذه لا تحتوي على جهاز تلفاز كما قيل لي !

بغيت أقول لهم : وإذا فيه بلاي ستيشن الله لا يهينكم ماني بقايلٍ لا !

الصراحة كنت خجلان من كرم الضيافة هذه، والأدب الظاهر من الإخوة السجانين " والله يتولى السرائر " وهذه كلمة حقٍ أقولها كراصدٍ مستقلٍ لما مررت له، حتى لا يخلط أحد قضيتي بقضايا غيري، أو تجربتي بتجارب الآخرين، وكما قلت لكم من قبل في إحدى الحلقات، الإرهابيون مقامات !

استقر بي المقام في غرفتي الجديدة أو زنزانتي سمها ما شئت، وكانت فسيحة للغاية، نظيفة جداً، تحتوي على بقايا صحفٍ قديمةٍ، جلست أقلب في صفحاتها وأتفرس في وجوه أبنائها وما كتب عنهم من تحليلٍ أو إشادةٍ ونحو ذلك، وفجأةً دخل أحد الحراس بعدما رصدني في الكاميرا، وجمع جميع تلك الصحف من بين يدي، لم أستجديه بل نظرت له في اشمئزازٍ .

فقال لي : لا تزال قيد التحقيق، وإذا انتهى التحقيق فسيوفر لك كل شيءٍ . ثم فسر إجراءه هذا بقوله : إنها تعليمات مصلحة الزكاة والدخل ... والسجون !

الطريف في الأمر، بعد أن خـرج بسـاعةٍ واحـدةٍ، دخـل سـجان آخـر ضـئيل الحجم يتميز بصوتٍ شجيٍ نديٍ للغاية، وقال لي : يا أبا عمر تبيني أجيب لك جرايد من تحت !؟

قلت له : إيه .

قال : معك فلوس !

أجبت : في الأمانات !

قال : المفترض إنك تحتفظ بشيءٍ منها لك !

قلت له : بعدين إن شاء الله نتفاهم حيال هذه المسألة، لأنـام بعـد خروجـه في مقري الجديد نومةً هانئةً لم أستيقظ منها إلا علـى أصـوات دخـول فريـقٍ طـبيٍ للغرفة، بقيادة طبيبٍ مصـريٍ ملـتحٍ بشـوش الوجـه، سـلم علـي وكـانوا برفقـة السجانين بطبيعة الحال، سألوني عن وضعي الصحي وكان الأمر أشبه ما يكـون بتحقيقٍ ولكنه صحي هذه المرة، ثم طلبوا إجراء بضعة اختباراتٍ طبيةٍ للمريض الذي هو أنا !

* * * * * * * *

الفصل التاسع

مستشفى قوى الأمن



شكل الأهل خارج سجني خلية عملٍ متحركةٍ انقسمت إلى عدة أقسامٍ، قسم التجأ إلى أبواب المسؤولين والمتنفذين السابقين في الدولة لعل شفاعة أحدهم تجدي نفعاً، وقسم آخر طرق باب مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية مباشرةً، الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز، وقسم ثالث سبر أغوار المكتبة وفلاّها عن بكرة أبيها بحثاً عن وريقةٍ أو ذرةٍ سقطت سهواً من الجماعة أثناء عملية التفتيش تلك، والتي قد يشكل الخصم من خلالها دليل إدانةٍ !

وما علموا أن الطيور المهاجمة قد عادت إلى أوكارها سالمةً غانمةً ظافرةً بما يخرب بيت المتهم من المضبوطات والأدلة والبلاوي المتلتلة، كاليورانيوم المخضب، والبلوتونيوم المهرب، وما إلى ذلك من المواد الإشعاعية الخطرة !

مرّت عملية المداهمة هذه كما مر غيرها من عمليات المداهمة والتطهير، حيث كثر لغط الفضوليين في حقيقة ما وقع وجرى، فمنهم من يقول : آوى المتهم بضعة مطلوبين أمنيين، ومنهم من يقول هو مطلوب بحد ذاته، وطائفة زعمت أنني تاجر أسلحةٍ محترفٍ، وأنني المسؤول عن إذكاء نار الصراع بين قبيلتي الهوتو والتوتسي العريقتين في راوندا، ورابعة قالت : لا شأن لكم به دعوه لمصيره " صديق مقرب " مع الأسف الشديد، وما أكثر طعنات الأحباب هذه الأيام، ولم تكن هذه هي الأولى ولا الأخيرة، وسادسة وقفت وقفة رجلٍ مع عائلتي التي فقدت عائلها وهكذا الناس أجناس .

بعد الفراغ من عمليات المداهمة في الجملة، تأتي سيارات البلدية لتقتات على بقايا الجثث ! حيث جاء أحد المرتزقة من صحفييّ الغفلة وطالبي الشهرة، متسولي الأضواء ومتسلقي الأكتاف، الناعقين على خراب بيوت عباد الله، خرّب الله ديارهم، وأوبق عليهم آخرتهم، على رأسهم بعض رؤساء تحرير صحفنا

المحلية " اللهم آمين" جاء النمام باحثاً عن خبرٍ أو قصةٍ تكمن خباياها خلف عملية الاعتقال تلك، والتقى بالجار وابتدأه بالسؤال والتحقيق عني وعمن أكون ولماذا اعتقلت ؟ بعد أن عرّف عن نفسه بأنه صحفي همام ! لكنه لم يظفر بشيءٍ والحمد لله، ورده الله بغيظه لم يحصّل خيراً، وكفاني الله شر هذيانه، وسخائم طغيانه .

كان مستقري الجديد غرفة بعيدة كل البعد عن سمات السجن وظروف الاعتقال، غير أنك لا ترى فيها ضوء النهار، ولا أنجم الليل، مجرد غرفةٍ صماء خاوية الروح، ولا تمت للمحيط الخارجي بصلة قرابةٍ، سوى أنها جزء من تركيبة مستشفى حكومي يقبع في إحدى ضواحي مدينة الرياض .

طولها حوالي خمسة أمتارٍ، وعرضها حوالي ثلاثة أمتارٍ ونصف، ملحق بها دورة مياهٍ أجلكم الله، ويتوسطها سرير من أسرة المرضى، وكاميرا مراقبة تجاه رأسك تلوح لها بيدك الكريمة إن احتجت إلى شيءٍ من حراسك، وكانت زيارات الحراس متكررة وأكثر من مرةٍ في اليوم، يطمأنون عليك بين الفينة والأخرى، أو يقطعون عليك حبل صمتك وتأملاتك في واقعك الانفرادي، فلربما زين لك عدو الله الشيطان عملية انتحارٍ في غمرة يأسٍ قاتلٍ، أو إحداث شغبٍ

وبلبلةٍ، دون أن أسقط من قائمة الزيارات، زيـارة ممـرض القسـم وهـو فيلبـيني الجنسية يزودني بالدواء في وقته، أو يسحب مـني عينـةً دمٍ لتحليلـها، برفقـة الحارس طبعاً، وما خلا هذا الرتم الممل لا شيء يذكر .

جاء وقت الغذاء فجلست أتناول غذائي وقد شغلت التلفاز بحثـاً عـن جديـد الدنيا من أخبارٍ وأحداثٍ وموضـوعات، وبينمـا أنـا آكـل وأتفـرج إذ دخـل علـيّ حارس من حراس العنبر أو القسم، فقال لي : ممنوع مشاهدة التلفاز !

قلت له : لماذا ؟

أجابني : تعليمات مصلحة المياه والسجون !

قلت له : حاضر ولم أتوسله، أطفأ بيده جهاز التلفاز وأكملت طعامي .

بعدها بساعةٍ أو أكثر دخل عليّ الحارس ذو الصوت الشجي، وهو معروف برسائله التفاؤلية الموجهة إلى كل معتقلٍ معي في العنبر، إذ يذرع ممر المستشفى رافعاً صوته بتلك القصائد الغريبة متغزلاً في معشوقةٍ مجهولةٍ بقوله :

ليتني في جيبك ريالٍ مقطوع – أبقى معك ما تقبله أي بقالة !

وما إلى ذلك من الأبيات النبطية العجيبة التي لم أهضـم نظمهـا ولا معانيهـا حتى الساعة .

يتوقـف عنـد غـرفتي ليخـرج سلسـلة مفاتيحـه، أسمـع رنينهـا قبـل أن يقحمها في عين الباب، يلج عليّ الغرفة هاشاً باشاً مبتسماً، السلام عليكم يا أبـا عمر، تبي شيء ناقصك شيء، وهو الوحيد الذي كان يكنيني، أما بقية الحراس فكانوا يحفظون رقمي !

عندما أشكره يقول : والله من جد، أي شيء تريده أو تحتاجه، وأنا أعلم وقد علمني المنطق في المعتقل أن صلاحية هذا المسكين محدودة، ربمـا أسـعفك بطعـامٍ خارج أوقات الطعام، أو مقص أظافرٍ، أو معجون أسنانٍ وما إلى ذلك، أما حقيقـة وضعك فيعتذر عنه هو وغيره .

انقضى يومي الأول داخل مستشفى قوى الأمن بسـرعةٍ فائقـةٍ، ولم أكتشـف سوء المكان الذي أنا فيه إلا بعد مـرور أيـامٍ، وأن عليشـة علـى تواضـعها كانـت خيرا لي، فهناك كنت أتشمس وأستنشق هواء ربي في غـير أوقـات التشـميس،

وهنـا أخضـع لإرادة المحقـق قبـل أن يسـمح لـي بالزيـارة ومطالعـة الصـحف والتشميس، وعلى أية حالٍ كنت أتذكر قـول الـنبي عليـه الصـلاة والسـلام " لا تنظروا إلى من هو فوقكم، وانظـروا علـى مـن هـو أسـفل مـنكم، فإنـه أجـدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم " لأن هناك من هو أسوء حالاً مني في التوقيف .

ومن خلال قراءاتي الغـابرة في أدب السـجون، ومطالعـة مـذكرات وقصـص عشرات المعتقلين على شبكة الإنترنت، أحمد الله تعالى على ما أنا فيـه، وأدعـو الله أن يفـرج هـم المسـلمين في سجوننا وسـجون الشـام ومصـر وتـونس والعـراق والأردن وغيرها، حيث تحول عالمنا العربي إلى معتقلٍ ضخمٍ، أو كمـا قـال عبـد الله بن منيف : كل شيءٍ في عالمنا يضيق، إلا السجن فيتسع .

وتكمن هذه المقارنة في الإذلال الذي يلحق المتهم حال اعتقالـه، والتعـذيب والضرب وسب الرب جل وعلا، وهتك الأعراض، وانتهاك الحرمات، بل وحتى القتل والإعدامات والتصفيات الجسدية، ونوعية الطعام المقدم في السجن، كقـول الشيخ كشك يرحمه الله : قدموا لنا في السجن فول مسوس، أستغفر الله العظـيم، أقصد سوس مفول !

أو كما نقل لي أحد الزملاء حاكياً عن مقابلةٍ أجريت مع الشيخ وجدي غنيم، عندما سأل وجدي غنيم عن نوعية الطعام المقدم في السجن أجاب : بأن السجن قد وضع لهم برنامجاً رائداً في مجدولاً للطعام، فيوم السبت مثلاً يقدم للمساجين فول في الإفطار، وعدس في العشاء، وكذا الحال في يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء إلى يوم الجمعة، وعندما يأتي سبت الأسبوع الثاني يتغير نوع الطعام من فولٍ وعدس، إلى عدس وفولٍ ! فيبدأ سبت الأسبوع الثاني بالعدس والفول وهكذا، لتعود الدوامة ثانيةً إلى فولٍ وعدسٍ وهكذا دواليك !

أما سخرية الزبانية فهي على قسوتها وفجورها لا تخلو من طرافةٍ، إذ يقول الشيخ كشك رحمه الله : كانوا يدفعون بالمتهمين من سيارة السجن إلى المعتقل قائلين في سخريةٍ : هذا أخوكم في الله فلان، وهذا أخوكم في الله علان، حتى وصلوا إلى شيخٍ وقورٍ كبيرٍ في السن فقالوا : وهذا جدكم في الله ! لم يخجلوا من شيبته وطول عمره، ما أحلم الله جل وعلا .

أحد المحامين وقف أمام هيئة المحكمة العسكرية في مصر أيام الحكم الناصري، والتي شكلت لمحاكمة متهمٍ من المتهمين في قضيةٍ من القضايا، يقول

المتهم – نسيت اسمه – في لقاءٍ معه : استهل محاميّ مرافعته الدفاعية عني بقوله لهيئة المحكمة : إن هذا الثعلب الماكر الماثل أمامكم، وأشار بيده إلى موكله ! قد فعل كيت وكيت وكيت، ولأول مرةٍ في التاريخ الإنساني ينقلب محامي المتهم إلى مدعٍ عامٍ يجرّم الضحية دون أدنى سببٍ، في حين كان واجبه أن يدافع عنه ويا قلب لا تحزن !

هذا التعسف والقهر، أنتج لنا جيلاً يكفّر قبل أن يفجر، وينحر قبل أن يسأل، وتحول الفكر التكفيري إلى فلسفةٍ حركيةٍ يتلقفها الجميع في لهفةٍ وشوقٍ، كنافذة حريةٍ على العالم الأخر، وبوابة عزةٍ لإحراز نصرٍ مظفّر ! وتحقيق واقعٍ أفضل، ومستقبل أرقى، غير أنها في حقيقة أمرها ردة فعلٍ عنيفةٍ غير منضبطةٍ على سياط الجلادين، وانتفاضة تحرر سريعة التلاشي والاضمحلال ضد ليل القهر الذي طال !

ومن قرأ لأحمد رائف كتابه البوابة السوداء، والمعتقل الأردني في السجون النصيرية السورية محمد سليم حماد، وهبة الدباغ خمس دقائق " تحولت إلى خمسة أعوامٍ " لهاله الأمر واستهوته أحزان على واقع الحال، واستفحال ظاهرة الطغيان والظلم في مجتمعاتنا .

حاول الأقارب ربط قضيتي بقضية زميلٍ آخر لي، ألقي عليه القبض بالتزامن مع إلقاء القبض عليّ تقريباً، فظنوا والظن أكذب الحديث أنه وشى بـيّ أو أوقـع بي، ربما جمعني به قاسم مشترك خفي، ولم أكن أدرك أنه ألقـي عليـه القـبض إلا بعد خروجي، ولا يزال حتـى ساعة كتابـة هـذه الأحـرف في السـجن، لأن قضيته معقدة وفيها إن وأخواتها والله المستعان .

وجدت في مكاني الجديد وقتاً كافياً لقراءة القرآن الكـريم وتثبيـت حفظـي، وتحسنت حالتي النفسية قليلاً، ما خلا لذعات شوقٍ عارمـةٍ إلى نسـائم حريـةٍ، ولقاء العائلة، كما انتظم نومي، وأصبحت أقلل من عمليـة الانسـطال كـرد فعـلٍ على هذه الكارثة التي حلت بي، كانت غرفتي تسبح تحـت إضـاءة الفلـورانس البيضاء على مـدار الأربعـة والعشـرين سـاعة، لا أسـتطيع إطفائهـا أو الـتملص منها، وإذا ما حان وقت نومي فلا بد لي من تغطية عيني بشرشـفٍ أو مخـدةٍ أو منشفةٍ وما إلى ذلك، لأغرق في الظلام الدامس قليلاً، كـان نـومي متقطعـا بسـبب تلك الإضاءة المرتبطة بعين المراقبة الكـاميرا، وقـد تركـت عمليـة الإضـاءة تلـك وبعدي عن الشمس أثراً سيئاً في بشرتي، فبدأ جلدي يصاب بالجفـاف السـريع، وأصبح حساساً جداً للألم وللمس، حتى إنـني طلبـت مـن الممـرض يومـاً إسـعافي بإحدى الكريمات المرطبة .

في اليوم التالي، تم تصفيد قدمي تمهيداً لنقلي إلى غرفة الأشعة وما يترتـب على عملية النقل تلك من اختلاطٍ بيني وبـين المرضـى، حضـر آمـر العنـبر وهـو ضابط برتبة مقدمٍ يهتم بهندامه كثيراً، وعلى قدرٍ كبيرٍ من الأدب، يخيل إليك إذا رأيته أنه مديراً في شركة، أو وزيراً في دولةٍ، لا مسؤول عنبرٍ !

كان دمث الأخلاق، قليل الكلام، سريع النطق، قال لي : سننقلك إلى غرفـة الأشعة، وهناك ستختلط بالمرضى، فلا تحادث أحداً، واعتذر بأن هـذه الأصـفاد ما هي إلا إجراء روتينيـاً يخضـع لتعليمـات مصـلحة الزكـاة والميـاه والكهربـاء والسجون !

تمت تغطية قدمي بشرشفٍ سابغٍ حتى لا يرى الناس تلك الأصفاد الـتي قـد تثير أسئلة الفضوليين، كما تم وضع منشفةٍ فوق رأسي، وطلب مني بكل أدبٍ أن أخفض رأسي حتى لا أُعرف أو أثير كوامن أسـئلة لـدى المـراجعين، رافقـني في تلك الرحلة رجلي أمنٍ بلباسٍ مدني، أحـدهما خلفـي، والآخـر يمشـي بجانـب المرض، وبدا المخبران كأنهما شقيقان يحفان بقريبٍ لهما ويأبها لصحته.

اختلطت عليّ أصوات المراجعين، وزحمة المرضى، وقرع النعال، حركة دائبة لرجالٍ، صخب لأطفال، ثرثرة نساءً، صوت ممرضةٍ تنادي مراجعاً بلغتها العربية المشوهة، رجل يسأل موظفاً، آخر يعبث في محموله، طفل يجري أمام كرسيّي المتحرك، والمخبر يتفادى الاصطدام به أو التوقف القسري في المر بكل براعةٍ، فلا مجال للتوقف بهذا المعتقل هنا، وأنا أرمق الجميع بعينٍ خفيةٍ، متأملاً هذا المسرح العجيب وقد طغى عليّ إحساس مرير بالغربة !

ما أقرب الحرية إليّ وما أبعدني عنها !! إنني معتقل في كرسيي أيها الأحرار !

كان القيد والمخبرين كجدار الفصل العنصري الذي يشطر أراضي فلسطينٍ إلى شطرين، وكان حالي بعجزي وأسري مع أولئك المرضى والمراجعين، كحال العوائل الفلسطينية التي مزق أرحامها جدار الصهاينة الأوغاد، تضاربت في أعماق نفسي عشرات الخواطر والتأملات والأحزان، وتنازعتني رغبات متناقضة من عجزٍ وأملٍ بغدٍ أفضل قد لا يأتي أو قد يطول إلى حين إقباله .

ولم أكن أوقن بعد بانفراجٍ قريبٍ في الأزمة .

وصـلنا غرفـة الأشـعة المزدحمـة، وهنـاك فُـتح لـي البـاب وانفـض جمـع المراجعين المزدحمين حول الكاونتر وباب الغرفة بإشارةٍ من يد المسؤول عن تلك الغرفة، أيقنت بعدها أن كثيراً مـن أبـواب مؤسسـاتنا الموصـدة علـى ثـرى هـذه الأرض، تفتح بكل يسرٍ وسهولةٍ أمام طائفتين من الناس .

المسؤولون من علية القوم، والمعتقلين على ذمة قضايا الرأي أو السياسة ! أما بقية الطوائف والشرائح فليس لهم إلا صفوف الانتظار أمام أكشاك المستشفيات، توقف بي كرسيي المدولب داخل تلك الغرفة، ونهضت بمساعدة أحد المخبرين، أوقفت أمام جهاز الأشعة، واحتمى الجميع من أضرار الإشعاع خلـف الحـاجز الواقي مع فني الأشعة الذي ارتفع صوته بالتعليمات الأخيرة قبل التقاط الصورة : خذ نفساً طويلاً .... اكتم نفسك .... تنفس !

أتنفس ! !؟

أتنفس ماذا أيها الوغد !؟ هواء مختلط بغبار القهر وطلع الأسر !؟ ثم ماذا عن قولك اكتم النفس !؟ هل أنت مخبر أم طاغية أيها الفني !؟ من الذي أوكل إليك مهمة كتم الأنفاس !؟ ثم إنني أنا وغيري منكتمين وبالعين تبن أيضاً !

قالَ ليَ الطبيبْ :

خُذ نفساً

فكدتُ ـ من فرط اختناقي

بالأسى والقهر ـ أستجيبْ

لكنني خشيتُ أن يلمحني الرقيبْ

وقال : ممَّ تشتكي ؟

أردتُ أن أُجيبْ

لكنني خشيتُ أن يسمعني الرقيبْ

وعندما حيَّرتهُ بصمتيَ الرهيبْ

وجّه ضوءاً باهراً لمقلتي

حاولَ رفعَ هامتي

لكنني خفضتها

ولذتُ بالنحيبْ

قلتُ له : معذرةً يا سيدي الطبيبْ

أودّ أن أرفعَ رأسي عالياً

لكنني

أخافُ أنْ .. يحذفهُ الرقيبْ !

عدت إلى غرفتي بعد معانقتي لذلك الطيف الذي أسموها حريةً، حُلت قيودي ووجدت في انتظاري طعام الغداء، تناولت ما تيسر منه وتوضأت استعداداً للصلاة، صليت جالساً هذه المرة، لقد أصابني الاعتقال بالوهن لقلة حركتي داخل هذا الحيز الضيق، وبدأت عضلاتي في التراخي والكسل وأنا لا أقدر على ممارسة الرياضة ما خلا المشي والسباحة، دخل عليّ سجاني فوجدني أصلي جالساً، سألني عن السبب فقلت له : إنني مصاب بالوهن في عضلات جسدي، فأحضر لي مشكوراً كرسياً، وقال لي : صلّي عليه بدلاً من الصلاة على الأرض .

قلت لنفسي : إن بقيت على هذه الحالة فلن أقدر على المشي ولا على الحركة، ثم ألزمت نفسي ببرنامجٍ يوميٍ للمشي داخل تلك الغرفة، واهتديت إلى إحدى الحيل لفك طوق العزلة الإجبارية، كنت أمشي وأمر بجانب التلفاز إذا اقترب وقت نشرة الأخبار، وكنت أميز موسيقاها المتسللة من تلفاز الحراس وجيراني من المعتقلين في الغرف المجاورة، فكنت أستغل الفرصة وأمر بجانب التلفاز لأصفع زر التشغيل بكل براعةٍ بعيداً عن عين النظافة ! أقصد عين كاميرا الحرس .

أستمع إلى الموجز بصوت حامد الغامدي، وأحياناً مزيد السبيعي، وإذا فسد يومي كله رأيت إطلالة سليمان العيسى " اللهم لا اعتراض" أستمع ما شاء الله لي أن أستمع من النشرة الإخبارية، وأحياناً أقوم بضرب زر صوت التلفاز لأرفع مقداره أو أخفضه على حسب حاجتي لذلك الصوت، ودفعاً للحرج الذي قد يعتريني من دخول السجانين على حين غفلةٍ مني .

كنت أهتم بأخبار الجبهة الداخلية، إذ قلت للمحقق في اليوم الأول وكررت عليه قولي أكثر من مرةٍ، إن كنت تريد الخير لي فاستعجل لأنني ووفقاً لقراءاتي أوقن – كما أراك – بحدوث أمرٍ ما من قبل أولئك المطلوبين ! فمن قرأ

أدبيـاتهم وتـابع أخبـارهم أدرك أنهـم بصـدد تصـعيد عمليـاتهم لا تهـدئتها، وصحت توقعاتي مع الأسف الشـديد، فكـان انفجـار المـرور بشـارع الوشـم وأنـا داخل السجن، ثم تبعتها عملية اقتحام مجمعات الخبر وقتـل الرهـائن وسـحل جثة أحد الغربيين ! ليردفها أولئك القوم بعملية ينبع إلخ ...

إذن كنت أقوم بصفع التلفاز لأتابع ما يستجد من الأخبار، مـع أخـذ كافـة الاحتياطات الممكنة للتحايـل علـى السـجانين، إذ قـد يصـادف دخـول أحـدهم غرفتي مع اقترابي أثناء مشيي من البـاب، ولا يمكـنني بحـالٍ مـن الأحـوال أن أعود بسرعةٍ إلى جهاز التلفاز لأن كاميرا الحراس ستلحظ تلك الحركـة المريبـة مني لتفضحني، وأنا لا أريد استجداء أحدٍ منهم أو التوسل إليه أن يبقي تلفازي في وضع التشغيل .

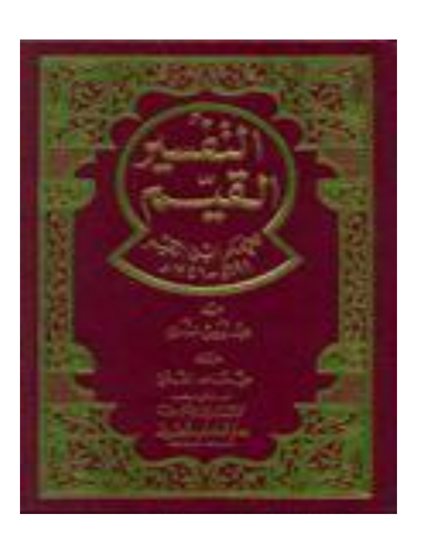
وعلى سوء أدلجته الوطنية لي، بسخف أخباره، وتخلف إدارته، وتقليدية برامجه، فإنه كان نافذتي الوحيدة على الخارج، والحمـد لله أن القنـاة الأولى لم تكن على غرار قناة الجماهيرية العربيـة الليبيـة الاشـتراكية العظمـى إلخ ... وأخواتها، فعندئـذٍ سـيذوق الموقـوف غصـص تعـاليم التلمـود الشـيوعي اللـيبي الأخضر !

استمرت حالة المشي الرياضي اليومية، وما يتبعها من مشيٍ إخباريٍ أياماً، حتى اكتشفني أحد الحراس ليلةً من الليالي فقال لي : رجاءً لا تحرجنا، لا أود تصفيدك في سريرك لتمتثل إلى الأوامر بشكلٍ جيدٍ، وفعلاً لم أقم بتشغيله أبداً، إلى أن خرجت من سجني

* * * * * * * * * * *

الفصل العاشر

المـــقـاومــة



أضمرت أمراً في قرارة نفسي وعزمت على تنفيذه بعد تفكيرٍ عميقٍ في سلبياته وإيجابياته على السواء، قلت لنفسي : إن طالت فترة اعتقالي وبعدي عن أي وسيلة اتصالٍ بعائلتي لمتابعة شؤونهم ومعرفة آخر أخبارهم، فإنني سأشرع في إضرابٍ مفتوحٍ عن الطعام حتى تتحقق جميع مطالبي، وقد وضعت يوماً محدداً للشروع في هذا التمرد الشخصي المتواضع، غير أن آمر العنبر دخل عليّ بعد يومين من اتخاذي لهذا القرار ليسألني هل أنت بحاجةٍ لشيءٍ ما !؟

قلت له : أود أن أطمئن أهل بيتي وأقاربي على حقيقة وضـعي في السـجن، وأطمئن في المقابل على بنياتي وأعلم ما يدور في محيط الأسرة من تطوراتٍ نتيجةً لعمليــة البعـد القسـري عـنهم، إضـافةً إلى أنــني ممنــوع مـن القـراءة والمطالعــة ومشاهدة التلفاز، والمشاهدة لا تعني لي الكثير بالدرجة الأولى، ما خلا متابعــة التطورات الداخلية للوطن، والتي قد تؤثر في مسار قضيتي، سيما وأنني أخبرت ضابط التحقيق منذ البداية أن يسرع قدر المستطاع في فحص أجهزتي الحاسـوبية بجميـع متعلقاتهـا، وأن يكمـل عمليــة التحقيــق معــي حتــى لا يتوقــف مصـير معاملتي عند أسئلةٍ مبهمةٍ قد يراها هو أو الجهات المعنيـة بعمليــة الاعتقـال، وأخبرته صراحةً : بأن الأوضاع في الخارج – خارج السـجن – لا تبشـر بخـيرٍ، وأنــني أعتقـد أنهـا في طـور التصـعيد إلى مواجهــاتٍ دمويــةٍ أكـبر ممـا رأينهـا وسمعناه، وإذا وقع أمر لا قدر الله، فإن الدولة ستنشغل به بحثاً وتحقيقاً، ولـن تجد الوقت الكافي للبت في التهم الموجهة إليّ .

قال لي سعادة المقدم " آمر العنبر " : عندنا كتاب ديني في هذا العنبر ... ينفع !؟

قلت له : أكيد يا خوي، إن شاء الله كتاب في تعليم فنون الطبخ أو الشـعوذة الغناء ! المهم شيء أقرأه وأتسلى به وأقطع به وقتي .

جاءني بمجلدٍ من كتاب التفسير القيم للإمام ابن القيم، أعتقد أنني أنهيته أكثـر مـن مـرةٍ في ذلـك الحجـز حتــى مللتـه، ومـن شـدة فراغـي قـرأت جميع

محتوياته من الغلاف إلى الغلاف، بما فيها أرقام هواتف المطبعة التي طبعته وتاريخ الطبع، وبينما كنت أقلبه يوماً، اكتشفت فيه أمراً مثيراً للاهتمام ! وجدت أن أحد المعتقلين السابقين قد نقش على غلافه الداخلي الأبيض وصيةً طويلةً بخطٍ دقيق، لا يتسنى لك قراءتها بوضوحٍ إلا إذا أمسكت ذلك الكتاب بطريقةٍ معينةٍ تحت الإضاءة، وقد يدرك القارئ المتصفح لذلك الكتاب وجود كتابة مصنوعة على ذلك الغلاف، لكنه لن يتمكن من قراءتها بكل يسرٍ إلا إذا حرك الكتاب بشكلٍ ملائمٍ مع الإضاءة .

جاء في وصية الأخ المجهول : احرص على صلاة الليل، وكثرة قراءة القرآن والدعاء، واعلم أن الابتلاء سنة في الأنبياء، كما أوصى على الغلاف بصيام التطوع والصبر على طاعة الله عز وجل، كان نقش خطه جميل للغاية، وأعتقد شخصياً أن عملية النقش تمت بسدادة علبة عصيرٍ وما إلى ذلك والله أعلم، كما اكتشفت أثناء عبثي بطاولة الأكل التابعة للمستشفى وجود قطعةٍ صغيرةٍ من قلم رصاصٍ " رأس القلم الحاد " ضمه نزيل الغرفة السابق إلى قطعةٍ بلاستيكيةٍ من مخلفات الحقن بلاصقٍ طبي، ووجدته قد كتب على دورة المياه بخطٍ دقيقٍ كلمات ثائرٍ محبطٍ ساخطٍ على الجميع، مفادها : إن أهل الخنا والفجور والعهر يكرّمون، وأما المجاهدون فيعتقلون !

كان الاكتشافان طريفان للغاية وأحدثا نقلةً نوعيةً في حياة الاحتجاز، إذ سرحت في ضيوف هذه الغرفة الغابرين، من يكونون وما هي التهم التي وجهت إليهم ؟ وكم بقوا وما هو مصيرهم ؟ وتذكرت على إثر هذه الكتابات

وطبيعتها، ما كان يفعله كثير من المعتقلين في السجون الناصرية، فمثلاً مصطفى أمين الصحفي المعروف الذي أنشأ دار أخبار اليوم، كان يكتب مقالاته ويهربها إذا قام حراس السجن بعملية تفتيشٍ للعنابر، إذ تمنع الأقلام هناك والأوراق منعاً باتاً، بل يصنفان على أنهما غاية في الخطورة والإخلال بالأمن ! ولعل عدوى السجون المصرية انتقلت إلى سجوننا ببيقروطيتها السخيفة .

يصاب الطغاة في العادة بالرعب من الكلمة الصادقة والتعبير الخلاق، ولأن للكلمة الثائرة مفعول السحر في تغيير واقع المساطيل والمخدرين والغافلين، فإنهم يقومون بحصارها وخنقها، بل وخنق أصحابها وقتلهم إذا اقتضى الأمر بعد كسر أصابعهم وحرقها .

وكم دفع الأحرار حياتهم ثمناً لكلماتهم النبيلة الصادقة، يقول الأستاذ مصطفى أمين : كانت زنزانتي في الدور العلوي من السجن الحربي، وعندما تحين ساعة التفتيش الدورية يصرخ أحد المساجين في الأسفل بأعلى صوته : أحمد عبد الرحمن، أحمد عبد الرحمن، وأحمد عبد الرحمن هذا كان ضابط شرطةٍ في العهد الملكي، اشتهر بدهائه وذكائه الحاد وسرعة بديهيته وقدرته على الحد من نشاط اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق .

وحينما يصرخ المعتقل بهذه الشفرة السرية، يقوم الأستاذ مصطفى أمين بمد يده بالأوراق التي كتبها، إلى جاره السجين في الزنزانة المجاورة له من نافذة سجنه، يتلقفها الجار السجين ليوصلها إلى الذي يليه وهكذا، وتتوالى

عملية الاستلام والتسليم هذه، على شكل سلسلةٍ يدويةٍ حتـى تصـل إلى زنزانـةٍ بعيدةٍ المدى يقطنها رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب .

يدخل الحراس إلى زنزانة الأستاذ مصطفى أمين، يقلبونهـا رأسـاً علـى عقبٍ، ولا يجدون الأوراق ولا الأقلام، كما يقومون بتفتيش الزنـازين المجـاورة ما خلا زنزانة الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتـب، يغـادرون العنـبر نـزولاً، لتنتهي حالة الطوارئ تلك، فتعود الورقة بطريقةٍ عكسيةٍ مع القلـم إلى زنزانـة الأستاذ مصطفى أمين فيكمل عمليـة الكتابـة وإبـداء الـرأي، ذكرهـا في سـنوات سجنه .

وذكر يوماً أنه أعطى ورقةً مـن الأوراق المكتوبـة لمعتقلٍ سـوري الجنسـية، فطلب منه الحراس التوقف في مكانه تمهيداً لتفتيشه، فما كان منه إلا أن أخرج تلك الورقة وأكلها وابتلعها، وعذب المعتقل عذاباً أليماً لكنه لم يبح بسرها !

قلت لكم إن كتاب التفسير القيم للإمام ابن القيم وصلني منه مجلد واحـد فقط، وهو المجلد الثالث، وأعطاني آمر العنـبر ورقـةً سـطرت فيهـا خطابـاً إلى مصلحة السجون، أطلب من خلالها حق القـراءة والاتصـال بـأهلي، وأنـا أعتقـد أنهم ألقوا بها في أقرب حاوية نفاياتٍ، ولـو طـال الأمـر بـي هنـاك لشـرعت في عملية الإضراب التي خططت لها، لكـن أمـر الله كـان أسـرع، وقـدره كـان أنفـذ سبحانه وتعالى .

وصلتني بضعة أخبارٍ من السجانين بأن ضابط التحقيق سيصل ليكمل مسيرة تحقيقه فاستعد لذلك، لكنه تأخر فنمت، ليدخل عليّ بدلاً منه آمر العنبر، قال لي : استعد ! اغسل وجهك، وغيّر ثيابك، سيصل ضابط التحقيق بعد نصف ساعةٍ، ألم أقل لكم من قبل : إن آمر العنبر رجل يهتم بهندامه وهندام معتقليه، وكم كنت أتمنى لو عيّن رئيساً لهيئة المراسم الملكية بدلاً من اللي أنتم خابرينه !

وهو يشبه في سحنته الدكتور في كلية العلوم السياسية ياسين الرواف إن لم أكن واهماً في اسمه، كان يكتب في مجلة اليمامة، وأعتقد والله أعلم أنه عين عضواً في مجلس الشورى، ربما الله أعلم لا أتذكر الآن .

وصل ضابط التحقيق – الذي يشبه الشيخ سعيد بن مسفر صوتاً وصورةً – محمّلاً بالأدلة والوثائق التي صورت من أجهزتي وأقراصي الضوئية، وكان سعادته قد تأبط ويا شر ما تأبط، من أوراقٍ وصورٍ ومستنداتٍ وأفلامٍ مرئيةٍ ومقالاتٍ قديمة لي، إضافةً إلى بضعة بلاوي زرقاء، كصورةٍ لي أنا وبعض الزملاء في طلعةٍ بريةٍ، احتوت على شيءٍ غريبٍ نسبياً سأذكره بعد قليلٍ !

وكانت تلك الرزمة تشبه رسائل الدكتوراه التي وضعت على طاولة لجنةٍ علميةٍ للمناقشة في كلية الشريعة، وخلت لوهلةٍ أنني سأناقش أطروحتي على الهواء مباشرةً أمام تلك اللجنة !

سلم عليّ المحقق وقال لي : شف هذه الأوراق، قلّبها وابحث فيها عن أي شيءٍ قد يدعم موقفك من التهم الموجهة إليك !؟

قلت له : والله يا أخي ما فيها شيء يبيض الوجه الصراحة، فأنا حاد جداً مع الحكومة من قبل، وعندما أوقفت لم أقم بحذف ما كتبته من تلك الكتابات القديمة، ما خلا مقالةً يتيمةً في مجلة الأمن التابعة لوزارة الداخلية، وحتى مقالي ذلك تم تحريره من قبل الأخ المسؤول عن المجلة .

قال لي : ابحث الآن في هذه الوثائق ثم نتفاهم فيما بعد، استلمت منه تلك الملزمة الثقيلة من الأوراق، والتي فاقت الألف ورقةٍ تقريباً وقد غشيتني نوبة مجنونة من الضحك كتمتها بصعوبةٍ !

لقد كانت أول ورقةٍ من مضبوطات الشؤم تلك، قصيدةً ناريةً لأحمد مطر يقول مطلعها :

السلاطين كلاب – السلاطين كلاب ..

تباً لأولاد ال ....

كان أول الغيث سبة نووية لم أقرأها من قبل، إذ كنت أجمع للمذكور جميع قصائده قبل أن أقوم بتمحيصها وفرزها وحذف العنيف منها، فظن فني

الفحص أنني أتبنى نوعية هذه القصائد الهجائية وأشجعها، لكنني والحق يقال أهوى شعر أحمد مطر وأعشقه، وأتأمل أسلوبه وأحفظ أكثره، وأتحرز من هذه النوعية من القصائد لأنها لا تقدم لي الكثير ولا تخدم أهدافي ولا ما أرمي إليه من وراء عملية الحفظ أو التأمل في الكلمات .

أكملت فحص الأوراق ولم أجد فيها شيئاً ذا بالٍ قد يدعم موقفي وقضيتي، حتى وقعت على إحدى المقالات التي كتبتها في أزمة عجينة السمبوسة بعد رحيل الإخوة اليمنين من البلاد، عقب تأييد زعيمهم لموقف صدام حسين من الكويت، الشاهد أن فيها مداخلة مع أحد الإخوة المعترضين أورد تهمةً لي بأنني أتبنى الفكر التكفيري في حق الملك فهد !

وكنت قد نفيت فيها عن نفسي من خلال مداخلتي معه تهمة تكفير ولي الأمر، وقلت للمحقق : هذا أكبر مثالٍ على وجهة نظري، وكان منطقي في الاستدلال غريب نسبياً، إذ ورد في معرض مداخلتي على المعترض قولي بالنص : أما الملك فهد فهو ولي أمري، أدين ربي بطاعتي له في غير معصية الله، لكنني لا أحبه يا أخي ! والحب مسألة قلبية لا شأن لك بها أنت ولا غيرك إلخ

تبسم المحقق من هذا الاستدلال الغريب وقال : هذا الكلام لا يخدم قضيتك بشكلٍ جيدٍ، ثم وأثناء تقليبي لتلك الأوراق كان المحقق قد شمر عن ساعد النجدة والمساعدة حيث شاطرني نصفها، ليقع بصره على مقالةٍ ساخرةٍ

كتبتها في حـق رجـال المباحـث وأسميتهـا، " نصـيحة لجميـع رجـال المباحـث العاملين في الساحة العربية "

كانت سـاخرة لاذعـة طلبـت فيهـا مـنهم : أن يقومـوا بكسـر حـاجز خـوف المواطنين من الجهاز والمبنى، وأن يقوموا بتنظيم أسبوعٍ خاص بالمباحث يسمونه أسبوع الدبابيس والتجسس ! علـى غـرار أسـبوع الشـجرة، وأسـبوع النظافـة، وأسبوع المرور ! كان المحقق يقرأها ويضحك ولم يكملها، بـل أخـذ تلـك المقالـة ودسها في جيبه، ربما استمتع بها في منزله .

سألني عن بعض الصور التي عثر عليها في جهازي، من ضـمنها صـورة لـي مع بعض الزملاء في إحدى البراري، وقد عثرنا هناك على قـارورة خمـرٍ فارغـةٍ أجلكم الله، قمنا بوضعها قرب النار والتقطنا لهـا بضـعة صـورٍ تذكاريـةٍ كشـيءٍ فريدٍ من نوعه يستغرب وجوده في ذلك المكان ! فقلـت لـه : لم أمـس الخمـر في حياتي ولله الحمد، بل وأبعد من ذلك لم أمس سيجارة منذ أن خلقـني الله تعـالى وأنا صادق، لم أمسها بيـدي ولا أطيـق رائحتهـا أو أتحملـها، فكيـف برائحـة الخمر !

الطريف في الأمر أن أحد أقاربي كان وما زال يقطن قرب بيـتٍ مـن بيـوت الله، ويجاور ذلك المسجد قصراً لأحد أصحاب المعالي الغابرين، يقول لي القريب : استيقظت يوماً لأداء صلاة الفجر فوجدت جار المسـجد سـعادة الـوزير الغـابر عليه من الله ما يستحقه، قد ألقى بعشرات قوارير حفلته الخامورجية البائسـة

قرب باب المسجد دون حياءٍ من الله ولا من الناس، ولا مـن المكـان الطـاهر الـذي يؤمه المؤمنون الأبرار !

كان من ضمن المضـبوطات وصـايا منفـذي تفجـيرات الحمـراء، وأنـا جمّـاع لأمثال هذه الوثائق كنوعٍ مـن التأمـل والتوثيـق – والفضـول – للأحـداث فقـط، سألني عن حقيقة احتفاظي بهذه المقاطع في جهازي، فقلـت لـه : الجميـع يعلـم أنني أول من أدان هذه العمليات، وبل وكتبت عن تفجير مجمع المحيا مقالةً لا ذعةً ولا يستطيع أي إنسانٍ كان أن يزايد على موقفي من العنـف في المجتمعـات الإسلامية وقتل الأبرياء من عباد الله، لكنني أحتفظ بها كمـا يحـتفظ أي إنسـانٍ مراقب ومتابع لما يجري على السطح، ولأنها قد تشكل بعد أعوامٍ تاريخـاً نـادراً يحتاجه باحث ما!

انتهت الجولة الثانية من التحقيق بعد ساعاتٍ أيضاً، ووعدني الأخ المحقق خيراً، وكان صادقاً في وعده ملتزماً بما قال " والله يتولى السرائر "

في خلال هذه الفترة تمكن نسيبي – زوج شقيقتي – جـزاه الله عـني خـير الجزاء من مقابلة الأمير محمد بن نايف، الذي اهتم وفقه الله بموضوعي كثيراً، بل وأحسن وفادة نسيبي وقال لمعاونيه : أي إنسانٍ يأتي من طرف عائلـة حسـن مفتي فيجب أن يتم إعلامي بحضـوري أو كلامـاً بهـذا المعنـى ! ومـن لا يشـكر الناس لا يشكر الله، والرجل أحسن لي ووقف معي في قضيتي لا أسـتطيع إنكـار جميله، وأنـا هنـا في معـرض الرصـد لا المـدح ولا الـردح أو التزلـف لأحـدٍ مـن

الناس، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : من صنع إلـيكم معروفـاً فكـافئوه الحديث ....

* * * * * * * * * *

الفصل الحادي عشر

الانفجار



طالت غيبته هذه المرة وامتدت لخمسة أشهر، حتى ظنت أمه ومالت إلى يقينٍ غير مؤكدٍ أنه رحل ملبياً صوت الجهاد على ثرى أرض الرافدين ! إذن فعلها العاق ولم آذن له !؟ هكذا حدثتها نفسها المضطربة بين تصديقٍ وتكذيبٍ تعليقاً على إشاعاتٍ وتخميناتٍ وصلتها من بعض أقاربها .

لكم حدثها في ليالي الشتاء الطويلة عن الضيم الذي حل بإخوانه هناك على أيدي برابرة القرن الواحد والعشرين، أمريكا ... لعنة الحضارة البشرية !

وأنه لم يعد يهنأ بطعامٍ ولا شرابٍ ولا نومٍ، ودوي القصف يهدر فوق المآذن والمنازل والمدارس لا يميز بين هدفٍ عسكريٍ وآخر مدنيٍ !

لّمح لها أكثر من مرةٍ وصرح، بأنه ومنذ سقوط بغداد عاصمة الرشيد وقلب الخلافة الإسلامية، لم تعد تعني له هذه الحياة شيئاً بما فيها حياته ! جادلته أكثر من مرةٍ بأن حياته تعنيها قبل أن تعنيه، وأن قلوب الأمهات لا تخضع لمعايير المجاهدين والشهداء والفدائيين في التقييم والعطاء ! بل تخضع لغريزة الأمومة التي شاطرتها الحمل والإنجاب والإرضاع والتربية، وأتبعت جدالها غير المجد بتهديدٍ ووعيدٍ بأنها غير راضيةٍ عنه إلى يوم الدين إن أتبع قوله فعلاً ولبى نداء السلاح !

مضى على ذلك النقاش المحموم خمسة أشهرٍ كاملة، قطع فيها جميع وشائج القربى والتواصل فيما بينه وبينها حتى لا تميل إليها نبضات شوقه، أو تضعف نفسه أمام وخزات العاطفة ! أنّبه ضميره أكثر من مرةٍ ووسوست له روحه الإنسانية أن يرفع سماعة الهاتف ليسمع أنفاسها وخلجات صدرها، كان يتذكر في حزنٍ عضة أسنانها على شفتها السفلى، وانكماش وجهها المتجعد في ألمٍ بسبب ضعف مفاصلها أثناء ركوعها، وهمسات استغفارها بين يدي ربها في جوف الأسحار !

لكن صوت المعركة كان أقوى وتنفيذ هذه العملية الاستشهادية أجدى ! لقد طغى الباطل وتجبر، وقيض الله له يداً من الحق حاصدةً، ويرجو أن يكون

منجلها الذي اختاره قدر الله لرفع شأن الأمة، وشل ذراع الطاغوت عن ترصد المجاهدين وأذيتهم !

لابد أن أصم أذني عن إيقاعات التخذيل والاستجداءات، بما فيها صوت الأم وتوسلاتها ! بضعة ساعاتٍ فقط تفصلني عن تحقيق هدفي، هدفي الذي عشت لأجله ثلاثة عقودٍ كاملةٍ، وشتان بين استشهاديٍ مناضلٍ باع نفسه لله معاهداً أميره على الإثخان في الأرض ! وبين جبانٍ أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

هو كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، مجرد مسخٍ رعديدٍ شبهه الله جل وعلا بهذا الحيوان النجس ! هكذا حدثنا شيخنا أبو عاصم الغريب !

- اصطف خلف الإمام في خشيةٍ وخشوعٍ منتصب القامة خافض الطرف تجاه موضع سجوده، مغالباً كراه وإغراءات فراشه الدافئ الوثير لصالح عبادته ونداءات الوظيفة، إذ لم تترك له حياة الجندية فرصةً للدعة والخمول أو الكسل، فهناك الجزاءات العسكرية والحسومات المربكة لميزانية الأسرة المتواضعة، وشطر راتبه بالكاد يكفيه، إذ التهم شطره الآخر قرضاً بنكياً تورط فيه والده الكهل لتوفير متطلبات الأسرة الحياتية !

دفعه بره بوالديه إلى تقديم هذه التضحية على مذبح العائلة طيبةً بها نفسه !

ارتدى بزته العسكرية ذات الشريط الواحد، شد حزام بنطاله وخرج من غرفته، قبل رأس والدته في حنانٍ وبرٍ، ولم يتمكن من وداع والده الذي آوى إلى ركنٍ قصيٍ في بيت الله، إنه يتأخر دوماً في مصلاّه بالمسجد، يسبح ربه عقب صلاة الفجر حتى طلوع الشمس، ركب سيارته وتوجه إلى عمله المضن، حراسة البوابة الرئيسية لإدارة المرور العامة .

باشر ورديته الصباحية مودعاً زملائه من حراسات الفترة المسائية الذين اعتقهم نظام الخفارة مؤقتاً، ليحل محلهم في تحمل تبعات تلك الأمانة، مستميتاً في رتق خروقات أمنٍ قد يتسرب إلى موقعه من حيث لا يدري !

ابتدأ يومه الجديد بتنظيف غرفة الحراسات من أعقاب السجائر وبقايا أطعمة الأمس وبضعة أوراقٍ ومناديل شبه مستعملةٍ، ليغرق في دوامة الصمت والتأمل والخيالات المضطربة لأحلام مستقبلٍ زائفٍ قد لا يتحسن فيه دخله، ولا يعتق فيه من دينه، مجرد جنديٍ خامل الذكر بائس الوظيفة، خلية واحدة في نسيج مجتمعٍ تنساب منه الرحمة بشكلٍ يومي، وتتلاشى فيه العاطفة، وتتلاعب به المصالح، وتعصف به الأهواء، وتسود فيه البراجماتية " النفعية" ماتت خصوصية المجتمع السعودي التي شنفت بها الأسماع، وتباهى بها الرعاع ! وتربعت على عرشها ضبابية المستقبل السعودي وحيرته !

- دخل منزله فرحاً وقد أخفى خلف ظهره قفصاً صغيراً لعصافير ملونةٍ، فضحت شقشقتها مفاجأته لطفلته الأثيرة التي اعتنقته بذراعيها في فرحٍ

وحبورٍ، رفع جسدها برقبته القوية وهي تضحك جذلة من انعدام وزنها، أرجحها برقبته يمنةً ويسرةً إذ أشغل يده اليسرى بإخفاء عصافيرها وراءه !

هتفت في انفعالٍ وفرحٍ : وش جبت لي !؟

تبسم قائلاً : مفاجأة حلوة !

- هوت إلى الأرض بجسدها من شدة اللهفة والشوق لتلقي مفاجئته، وحرص هو على أن يتلقفها ببراعةٍ بساعده الأيمن حتى لا يختل توازنها، في حين حافظ على عصافيرها متواريةً عن ناظريها .

حاولت الالتفات حوله لرؤية ما يخفيه، فصدها بالدوران في نفس الاتجاه، لتعود إلى الجانب الآخر بشكلٍ عكسيٍ وهي تقفز وتصرخ في براءةٍ، فدار معها في الاتجاه عينه حتى أذعنت بتوسلاتها بابا أبي أشوفها !

اعتقها أخيراً بذلك القفص الذي غدا محور حياتها وعالمها الوحيد حتى على حساب شقيقها الصغير عبد العزيز، إن غلبها النعاس وضعته بجانب سريرها، وربما اختل توازنه حيناً أثناء تحركها لينقلب فوق سريرها، وإن استيقظت ضمته إلى صدرها مبهورةً بتلك الأزواج الملونة التي لا تكف عن الغناء الباكي، كانت تبكي حريتها وظلم الإنسان لها، الإنسان الذي لا تكتمل سعادته إلا بسلب حرية الآخرين !

– في مكانٍ آخر ! قال الأمير **محمد بن نايف** لزوج شقيقتي : كنا نبحث عنـه منذ زمنٍ بعيدٍ ! عندما كان يكتب باسم **الخفاش الأسود**، وهذا الموقـوف لـدينا، له موقع خاص جمع فيه – ورصد – كتاباته منـذ أن بـدأ وحتـى وقـت تلاشـيه المزعوم عن الكتابة !

ما لم يعلمه الأمير، هو أنني توقفت طواعيةً عـن الكتابـة وبسـبب خـلافٍ شخصيٍ مع المشرف العـام لمنتـدى لسـاحة العربيـة، وأن الموقـع المنسوب إلـيّ، والذي جمعت فيه بعض مقالاتي، لم أقم أنا بتدشينه ولم أوعز لأحدٍ بتصميمه، ولم أبارك ولادته، ولا أعرف صاحبه حتى، وأنني لا أحـتكم إلا إلى كتابـاتي في منتدى الساحة العربية فقط.

غير أن نسيبي الأستاذ محمد ومن خلال حديثه مع الأمير اقتطـع منـه وعـداً بالإفراج عني، لأنني كنت وفعلاً قد ودعت عالم الكتابة المطولة في المنتـدى، مـا خلا بضعة مشاركاتٍ يتيمةٍ لا تسمن ولا تغني من أثرٍ محمودٍ أو مذمومٍ، قبل أن يعيدني إليها مرةً أخرى خروجي من السجن !

– توسطت شمس النهار سماء مدينة الرياض وأنـهى " **عبد العزيز المديهش** " بتوسطها إجراءات رحيله إلى رحاب العالم الآخر ! مودعـاً عالمـه الفـاني الـذي احتضنه لسبعةٍ وثلاثين عاماً وإلى الأبـد، غـير آسـفٍ ولا آبـهٍ لمـا قـد تـأتي بـه الساعات المقبلة، مرر أصـابعه في حبـورٍ وحنـانٍ علـى تـابوت المـوت المتحـرك،

والذي يحمل في جوفه مئات الكيلوجرامات من المواد المتفجرة المعدة بعنايةٍ على يد خبيرٍ في تفخيخ السيارات، متمتماً بينه وبين نفسه :

سأحمل روحي على راحتي – وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق – وإما ممات يغيظ العدا !

ودع رفاقه في تلك الاستراحة المجهولة، معانقاً أمير المجموعة الذي أوصاه بالصبر والاحتساب، ومحرضاً إياه على الثبات والإثخان في العدو ! والإكثار من ذكر الله تعالى، وختم وداعه بالآية (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وأن ريح الجنة دون ذلك المبنى ! رافقه في تنفيذ تلك العملية خليله في التنظيم فهد بن عبد الله الفراج للاشتباك المباشر مع العدو إن فكر الخصم في اعتراض طريق تلك السيارة المفخخة.

سبقتهما قبل مغادرة ذلك الوكر النائي عن الرحمة والعدل، مركبة مجهولة للقيام بعمليات مسحٍ ومراقبةٍ وترصدٍ للهدف المراد تدميره، وتوثيقٍ لتلك العملية إعلامياً لبثها لاحقاً كوقود افتخار لجرائم القتل وإزهاق الأرواح، وكل أمتي معافى إلا المجاهرين !

تم التخطيط لكل شيءٍ بعنايةٍ فائقةٍ، فرغ مندوبا الموت قبل ليلة التنفيذ من تسجيل وصاياهما بواسطة كميرات الفيديو، وخلصت الجماعة إلى صياغة خبرٍ

إعلامي يحمّل مسؤولية تنفيذ هذه العملية إلى ما يعـرف " **بكتائـب الحـرمين** " لزيادة الإرباك والتضليل للجهات الأمنية !

- لم تفطـن إلى مـرور الوقـت ولا إلى انحسـار الظـل عنهـا وهـي تلاعـب عصافيرها وتطعمها بيدها، حتى ألجأتها حرارة الشمس إلى الانحياز لظل حائط المنزل، وهناك افترشت الأرض بثوبها المنزلي السـابغ وهـي لا تكـاد تفـتر عـن الغناء مع عصافيرها وتقليد أصواتها ومشاكستها .

اختزلت عالمها الصغير في ذلك القفص المزركش بريشٍ ملونٍ متحركٍ، وتلـك الأصوات الفاتنة المحتجة على الأسـر . وغفلـت حتـى عـن صـوت عبـد العزيـز شقيقها المحتج على هذا الإهمال !

- غاب عن مشهده اليومي بعيداً هذه المرة، وقد غرقت في صفاء عينيه همـوم الحياة وثقل القروض ومرض والده ومستقبل مظلـم لا يـدري أبعـاده إلا الله جـل وعلا ! من يعتقني من هذه الدوامة ويرفع عن كاهلي ثقل هذه المعاناة !؟

- جاءني حلاق السجن، شاب صغير السن يحمل في يده اليمنى حقيبةً سوداء اللون، تشبه حقائب رجال الأعمال ومعقبي الجوازات ! فـتح حقيبتـه وأخـرج مقصاً ومشطاً وآلةً حلاقةٍ كهربائيةٍ من طراز باناسونيك، أسلمته الرأس دون أي اعتراضٍ، فبدأ في جز شعري وحف شاربي، ثم أعمل آلـة حلاقتـه علـى بضـعة

شعيراتٍ نبتت بشكلٍ عشوائيٍ على خدي حتى فرغ من عمله، قلت له : نسيت مشطي في المنزل، فهل تعيرني مشطك !؟

أجابني : هل رأيت يوماً حلاقاً بدون مشطٍ !؟

قلت لنفسي : ما شاء الله حلاق وفيلسوف ! والله وتقدمنا، كان صامتاً أثناء عمله لا يكاد ينبس ببنت شفةٍ، إنه عالم السجون المثير، عالم الصمت وتكميم الأفواه ووأد الحريات بما فيها حرية تبادل الرأي والأخبار مع حلاق السجن !

شيعته مودعاً وأنا أتمتم في سكونٍ، هذا ليس حلاقاً هذا خزنة أسرارٍ ! يا ترى كم رأس معتقلٍ ومطلوبٍ أمنيٍ عبثت به أصابع الأخ !؟

تذكرت قصةً أخبرني بها أحد الزملاء من الذين كانوا هناك ! قال لي : تأخر علي الحلاق يوماً، وعندما أتى ليجز شعر رأسي، صادف موعد حضوره انشغالي بالدردشة مع المحقق في إحدى جلسات مناقشة وتحقيق رسائل الماجستير ! فرحل معاليه – الضمير هنا يعود على حلاق المخابرات – غير مأسوفٍ إلا على مقصه !

قال لي الأخ الذي كان معتقلاً وأفرج عنه لحسن الحظ : وكان شاربي قد نما وتكاثر، وطال واستطال في الشر حتى انسدل على شفتي العليا كستارة المسرح،

أو كخمار غادةٍ حسناءٍ توارت خلف خيمتها في قلب صحراءٍ عربيةٍ قاحلةٍ !
وأصبح يشاركني طعامي – أي الشارب – ويتذوق شرابي قبل أن يلامس شفتي .

يقول : مللت من تطفل هذا السلك الشائك الذي لوث خصال فطرتي، والتي حثني على تطبيقها نبيي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ومعالي الحلاق لا يكون رهن إشارتك متى ما طلبته، بل له يوم محدد في الأسبوع أو أكثر، على حسب دورك فالضيوف كثر، لا كثرهم الله !

وذات يومٍ من أيام الله – والحديث لصاحبي – كنت في إحدى دورات المياه أتوضأ استعداداً للصلاة، وهناك عثرت على موس حلاقة مستعملٍ فوق المغسلة، فما كان مني وأمام ضغط الحاجة وأذية الشارب إلا أن غسلته جيداً بالماء والصابون حتى غلب على ظني نظافته وتحقق طهارته مما علق به من قذى وأذى المساجين أو الدبابيس .

أعملت الموسى في شاربي دون هوادةٍ حتى ظهر بياض شفتي العليا، وتحولت سحنتي من شيخٍ علمٍ نجديٍ، إلى شيخٍ قراءةٍ مصريٍ أو شاميٍ، أشبه في تقاسيم وجهي أحد معممي الأزهر الشريف، أو شيخ طريقةٍ صوفيةٍ في الجامع الأموي بدمشق، ولم ينقصني إلا الجبة الأزهرية وقبعتها الحمراء المندمجة بعمامتها القصيرة !

خرجت من دورة المياه ولم ألفت انتباه المخـبر الواقـف قربهـا، ومشـيت في طريقي لا ألوي على شيءٍ تجاه زنزانتي، حتى استوقفني أحدهم سائلاً إيـاي : حضرتك دبوس ولا مدبس !؟

أجبته : بأنني مدبس منذ زمنٍ طويلٍ، ومن طول تدبيسي في العنـبر تحولـت أو أوشكت على التحول إلى دبس رمانٍ إيرانيٍ من طراز ديراني !

سأله المخبر : لم أرك من قبل في هذه النواحي فمـن تكـون يرعـاك الله، نزيـل جديد أم منقول من سجنٍ لسجنٍ !؟

قال له صاحبي : بل أنا مسـتوطن عليشـة منـذ أمـدٍ بعيـدٍ، إنـني يـا سـيدي السجين رقم كذا وكذا !

ذهل المخبر من هذه المعلومات الخطرة : وظن أن في الأمر لبساً أو هروباً أو تمويهاً، أو ربما انتحال لشخصية سجينٍ ما، فتفرس في وجهـه ثانيـةً وثالثـةَ، ثم أمعن النظر طويلاً ليسأله بعد اكتشافه السر الخطير : أين الشنب يا ولد !؟

قال له الموقوف : ليش هو شنبي عهدة حكومية لا قدر الله !؟

لم يجد المخبر بداً من الأخذ بيده إلى غرفة التصـوير ثانيـةً، والتقـاط بضـعة صورٍ تذكاريةٍ له بهذه المناسبة السعيدة، مناسبة ملط الشنب، وتحسين الوجه،

وإضفاء البهاء على السحنة، والحمد لله لم توجه إلى صاحبي تهمة تهريب الشنب !

يحضرني في هذا ما ذكره الكاتب أحمد رائف في كتابه البوابة السوداء، بأن جماعة خراب الدولة " أمن الدولة المصرية " يقومون باستقبال المعتقل بهذا السؤال المريب الغريب : شاياً أم قهوة !؟ فإن قال لا قدر الله : شاياً حظي على الفور بخمسين جلدةٍ، وإن قال والعياذ بالله : قهوةً، حظي بعملية حلق رأسٍ بآلةٍ سيئة الصنع والسمت، تشبه آلة جز الحشائش، وهي تحفر رأس الموقوف عميقاً وتحدث فيه عاهاتٍ مستديمةٍ أكثر مما تحلق !

– انقبض صدره فجأةً ودونما سببٍ ظاهرٍ وهو يرمق فلول المراجعين المنشغلين في إنهاء معاملاتهم اليومية لدى الإدارة، ولم ينتبه من غفوته تلك إلا على نفير بعض السيارات المحتجة على بطأ ذلك التابوت الرمادي المتحرك في هدوءٍ تجاه البوابة الرئيسية لإدارته ! خرج من غرفة الحراسة لاستجلاء أمر تلك المركبة التي أجبرت على إبطاء حركتها بفعل الحواجز الخرسانية المسلحة حول تلك الإدارة !

تبادل رسولا الفاجعة عبد العزيز وفهد الرأي حيال اقتراب حارس البوابة منهما ! لقد حانت ساعة الحقيقة ولا مجال للتراجع أو الفرار ! هم فهد أن يرديه برشاشه، بينما يقتحم قائد المركبة بوابة المجمع ليحدث بتفجيره أكبر

الأثر ويحقق الإثخان في العدو الذي يسجد بين يدي ربه خمس مـراتٍ في اليـوم والليلة !

لم يحبذ عبد العزيز فكرته، إذ قـد تجـذب أصـوات رصاصـاته انتبـاه ذلـك الجيب العسكري القابع عند باب المجمع، والذي قد يرديهمـا سـويةً برشاشـه الخمسين ملي قبل أن يتمكنا من تنفيذ العملية، لا مجال للخطأ ... لا عـودة . اصبر قليلاً سيدفع ثمن تطفله غالياً !



اقترب حسين بهدوءٍ وتلقائيةٍ أمنيةٍ من تلك السيارة شبه المتوقفـة في المسـار المؤدي إلى الداخل، ولم يستوعب عقله المشـغول بهـم المعيشـة سـبب ذلـك البطـأ الغريب لتلك السيارة، كأن الزمان توقف، أو أوقفت المركبة زمن المحيطين بها من حارسٍ ومركبـاتٍ تحرضـها بأصـوات نفيرهـا الخافـت شـبه المتلاشـي علـى التوقف، صمت عجيـب يلـف المكـان، هـدوء غريـب يصـيب الجميـع بـالحيرة والغثيان !

شعور مذهل لم يشعر بـه الجميـع مـن قبـل ! أشـبه مـا يكـون بالخـدر أو الشـلل، عجبـاً ! لا أسمـع شـيئاً لا أعقـل محيطـي ! مـا بـال قـدماي توقفتـا في مكانـهما !؟ حتى جسدي تراخى وتعطلت آلية حركته !؟ هناك شيء مـا يلـوح في الأفق ! ضباب خانق يلفني أشبه ما يكون بأنفاس الموت الثقيلة الكريهة !

امتدت يد قائد المركبة إلى زر التنفيـذ وعينـاه ترمقـان في حقـدٍ بـالغٍ هدفـه الثابت في مكانه، بكت عصافير وجدانٍ في خوفٍ وانشغل شقيقها الصغير " عبـد العزيز " بألعابه عن محيطه الخـارجي، حانـت التفاتـة منهـا إلى السـماء رأت فيها ما أضحكها، همست شفتاه بأن الله أكـبر ! " عبـد العزيـز يقتـل " ومـيض سريع اختطف روح حسينٍ قبل أن يطير عالياً بتأثير ضـغط الانفجـار، لا داعـي للصراخ أو البكاء، لا حاجة للأنـين ولا الخـوف، خلّفـت صـفات الضـعف هـذه للمكلومين من عوائل القتلـى والقتلـة علـى السـواء، مـوت سـريع للغايـة أحـال جسده الضئيل إلى أشلاءٍ طريةٍ بفعل قوة الانفجار .

يقولون : إن الحائط لم يقتل وجدان ولا عصـافيرها، بـل حـنّ عليهـا في رقـةٍ شديدةٍ ومال فوقها فرقاً وشفقةً، ساتراً بخرسانته جسـدها الطـاهر مـن تبعـات ذلك الانفجار الآثم .

لم يجـرؤ الحـائط علـى قتلـها، لقـد دبـت فيـه الحيـاة وسـرت في فجـوات أخاديده الرحمة ! وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنـهار، وإن منـها لمـا يشـقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، بينما تقسو قلوب بني البشر

حتى لتخالها قطعة فولاذٍ انتزعت منها الرحمة، واقتلعت من وجدانها العاطفة، وانسابت من جنباتها ضغائن وأحقادٍ تجعل الحليم حيراناً !

ما أعقد النفس البشرية !



تضعضع ذلك الجدار أخيراً متفتتاً بعد استيقانه من وفاتها ! وبجانبها تناثرت عصافيرها الملونة مبتسمةً في ألمٍ، لقد ظفرت بحريتها أخيراً، غير أن الثمن كان فادحا للغاية، روح حبيبتها وجدانٍ !

بكى عبد العزيز – الصغير – دماء شقيقته وعصافيرها وغبار موت الضحايا وصوت انفجار مركبة عبد العزيز القاتل ! ولم يفهم حتى الساعة فلسفة اختطاف الأرواح التي نقشتها أنامل القائد عبد العزيز وزميله فهد الفراج على جسد شقيقته وجدان !!؟

كثيرون يدينون بأرواحهم بعد الله للبطل الشهيد بإذن الله **حسينٍ فقيهي** المقتول ظلماً وعدواناً عند البوابة، وضميرنا يدين للطفلة وجدان بالحزن والبكاء والحيرة التي تسوط وجداننا في عنفٍ وقسوةٍ لمن استقرأ تلك الأحداث وعاصرها وعاشها وتأمل فيها بعمقٍ !؟

من يملك الجرأة الكافية لضرب طفلةٍ صغيرةٍ لأي سببٍ كان ؟ فما بالكم بمن يمتلك جرأة قتلها وإزهاق روحها في حربٍ لا ناقة لها فيها ولا جمل !؟ اللهم لا تؤاخذنا بما فعل القتلة والمجرمون منا .

– لم يتناهى إليّ خبر الكارثة، ولم أقرأ في قسمات حراسي شيئاً عن ذلك الانفجار ولا تبعاته، بل إنني لم أسمع له صوتاً مع أنني كنت قريباً منه نسبياً !

ربما تداركت نفسيتي رحمة الله فعزلتني عن الإحساس تماماً بما يحيط بي خارجاً من أحداثٍ ووقائع، لصالح الانكفاء الذاتي على همي الشخصي، والتفكير في كيفية انعتاقي من قيد الأسر إلى عالم الحياة الواسع ! لم تتغير معاملة حراسي لي، حتى ذلك السجان الطيب صاحب الصوت الشجي، لم يكف في نوبة حراسته عن تلحينه لتلك الأبيات النبطية وسؤالي في طيبةٍ وأدبٍ : تبي شيءٍ يا أبا عمر ناقصك شيء !؟

زارني محققي للمرة الرابعة والأخيرة، رمم بإجاباتي فجوات تحقيقه ووعدني بوعدٍ منه بأن موعد فجر الفرج قد بزغت تباشيره، لم يخبرني بما حصل ولم يقص عليّ أنباء ما جرى، وكنت قد أخبرته منذ جلسة التحقيق الأولى عن تخوفاتي حيال تلك الأعمال الجنونية التي قد تندلع في أي ساعةٍ، وأنني أخشى من تفلت زمام الأمور وانشغال مسؤولي الأمن عن قضيتي بقضايا أعظم وأكبر، قد تصيب الوطن لا محالة !

* * * * * * * * * *

الفصل الثاني عشر

بوادر انفراجٍ أم تمديد اعتقالٍ ؟



بزغ فجر الخميس على سجين المستشفى وقد تعلقت آمال نفسه بالله ثم بقشة الوعود والعهود المقطوعة إليه من ضابط التحقيق، والتي لا تميل إليها نفس المتأمل لتصاعد وتيرة أحداث العنف على ثرى الوطن، قد يكون صادقاً في وعوده تلك لكن الأمر أكبر منه !

صليت الفجر وتلوت شيئاً من كتاب الله تعالى، ثم قمت بالدوران المحوري داخل زنزانتي البيضاء حتى لا تصاب عضلاتي بالضمور من كثرة القعود أو

الرقاد، وبما أن جسدي كان متضعضعاً بفعل آثار المرض القديم، فإنني لا أحسن غير المشي والسباحة كأنشطةٍ رياضيةٍ محدودةٍ بقرارٍ طبيٍ جافٍ !

وغرفتي لا تحتوي على مسبحٍ بطبيعة الحال، بل تحتوي على بضعة مساحاتٍ فارغةٍ محددة الأمتار، قمت باستغلالها لممارسة تمارين المشي داخل نطاقها الضيق، تذكرت مقطعاً للكاتب الفرنسي جيل بيرو في كتابه " صديقنا الملك " يعني به الحسن الثاني ملك المغرب الراحل، إذ يقول المقطع : كان زبانية مخافر التعذيب المغربية يجبرون سجناء الرأي والاشتباه على الرقاد الطويل فوق أرضية الزنزانة الجافة والقاسية دون حراكٍ، لا لبضعة ساعاتٍ، بل لأيامٍ !

ويقول بالنص : كانوا ممنوعين من الكلام، ممنوعين من الحركة، ممنوعين من الشرب، ممنوعين من قضاء الحاجة ! مجرد أجسادٍ رخوةٍ استلقت على أرضية الزنزانة العارية حتى تصلبت عضلاتهم وتيبست أطرافهم وأصيبوا بالخدر التام وانعدامٍ في الإحساس !

كثيراً ما يتفنن الإنسان في التعذيب والتنكيل و قتل الإنسان ما أكفره !

عند التاسعة تقريباً دخل عليّ حارس السجن وسألني عن رقمي المميز داخل السجن !؟ – في السجون تنسى الأسماء وتستبدل بالأرقام – تلوته عليه، قارن الرقم ببضعة أوراقٍ معه، ثم قال لي : ما هي أماناتك !؟

– أجبته : رخصة قيادةٍ، وبطاقة أحوالٍ، ودراهم معدودةٍ، وكتاباً موسوعياً في الآداب الشرعية وخصال الفطرة !

قارن ثانيةً ما قلته له بتلك الأوراق، ثم دخل حارس آخر وقال له على مسمعٍ مني إن أبا فلانٍ – قائد العنبر الطبي – الرجل المؤدب الذي يهتم بهندامه كثيراً، قد سأل أكثر من مرةٍ عن أماناته، وإن هناك شيئ ما يدور بين بعض المسؤولين عن العنبر تجاهك !

قلت لنفسي : ربما بزغ فجر الحرية كما قيل لي أو اقترب أجله، أو هي عملية نقلٍ مؤجلةٍ إلى سجن الحائر لا قدر الله !

تصرمت ساعات يومي كما تصرمت ساعات الأمس، وتتابعت مع أيام الأسبوع الذي تلاشى ذكره بعد أن طواه الله جل وعلا، كنت أعيش قيد الغرفة لا أشعر ولا أحس بما يدور خلفها، وقد وقع لي شيئاً من هذا قبل عقدٍ ونصفٍ من إلقاء القبض عليّ، إذ كنت تحت حصار فصيلٍ من الفصائل الأفغانية، ولم أكن أعلم ما دار ويدور خلف حدود ذلك الطوق العسكري المفروض عليّ وعلى رجالي!
حيث كنت مسؤولاً عنهم في ذلك الموقع، وبعد أن فُك الطوق العسكري عنا، اجتمع بنا أمير الجبهة وزف إلينا نبأ اغتيال – استشهاد – الشيخ جميل الرحمن رحمه الله .

لم نتأثر كثيراً من هول الفاجعة، لأن جللاً ما أصابنا وأصاب رفاقنا قبل وورود الخبر إلينا – قتل بعضهم أمام أبصار إخواننا – فكنا في حالةٍ من الشلل وضعف الإدراك قبل أن نستوعب تبعات تلك العملية الآثمة على العرب، إذ كان القاتل عربياً مع الأسف .

عاد إليّ الحارس مساءً وفي يده كيس بلاستيكي كنت قد وضعت فيه أمانتي أثناء وصولي لسجن الحائر، أعطاني ورقةً كتبتها بخط يدي قبل أيامٍ وفيها وصف مفصل عن تلك الأمانات، لكنه لم يعثر على الكتاب المنشود !

فقال لي : يلزمك كتابة إقرارٍ أنك لا تطلب المصلحة ذلك الكتاب، وقعت له على جميع ما طلب ثم خرج .



دخل حارس آخر مدني اللباس – شكله مخبر – وأخرج لي ورقةً أخرى، تحمل في طياتها تعهداً فهمت منه، أنني لا يمكن أن أصف المبنى الذي قطنته

ولا الطريقة التي تنقلت بها بين المباني، وقعت له على ذلك الإقرار، ثم أخـرج ورقةً ثالثةً فيها إقرار آخر مني بأنني استلمت من المصلحة مبلغاً من المال وقدره ٣٨ ريالاً، راتب تقاعدي من السجن !

قلت لنفسي : أكيد هـذه حـق الليمـوزين، وتصـورت أو توهمـت أن البـاب سيفتح لي بعد قليلٍ لأخرج من السجن إلى باب الدار حـراً طليقـاً ! أذكـر أنـني قلت لنفسي : إن خرجت هذه الليلة سأعزم نفسي على صحن شاورما بـدلاً مـن أكل المستشفى !؟

وكنت قبل وصول هذه الطلائع قد تكاثرت عليّ الرؤى التي تحمل في طياتها بشارات الخروج من السجن، والانعتاق من ذل القيد، مـن أبرزهـا أنـني رأيـت نسيبي الأستاذ محمد جزاه الله خيراً، واقفاً عن مسجدٍ مـن المسـاجد وهـو يسـلم عليّ مصافحاً، فقلت لنفسي معبراً هذه الرؤيا : الدعوة سلام، يعني لقاء، يعني إفراج !

كما رأيته أكثر من مرةٍ وهو يقول لي : ستخرج إن شاء الله، فاستبشرت بها كما أرشدنا إلى ذلك النبي عليه الصلاة والسـلام بقولـه : لم يبـق مـن الـوحي إلا المبشرات، الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، وأرجو أن أكون من المؤمنين.

لم يـتمكن مـني النـوم في يـوم الخمـيس بفعـل انفعـال الأحـداث المتلاحقـة وتتابعها إلا على شكل ومضات نعاسٍ متقطعٍ!

في صبيحة اليوم التالي تناولت إفطاري وقد دب النشاط إلى جسدي كطاقةٍ كهربائيةٍ عالية وبدأت انتظر ما ستسفر عنه الساعات القادمة، وفعلاً لم يطل انتظاري، إذ حضر الأخ آمر العنبر – الرجل الارستقراطي – وبضعة وجوهٍ جديدةٍ لم أرها من قبل، دخلوا عليّ برفقة كرسيٍ مدولبٍ وقالوا لي : تفضل !

جلست على الكرسي وقام بدفعي من خلاله حارس العنبر ضئيل الحجم ذي الصوت الشجي والوفد المرافق له، صافحت الجميع وودعوني بابتساماتهم وتمنياتهم الطيبة لي بحياةٍ سعيدةٍ، بمن فيهم أولئك الذين جاءوا لمرافقتي إلى مقري الجديد ! حتى وصلت إلى سيارة نقل السجناء، ولأول مرةٍ منذ أيامٍ أرى شمس الضحى مشرقة في كبد السماء، وتذكرت وصفاً لأحد الصحفيين البريطانيين الذين اختطفوا في بيروت أيام الحرب الأهلية، على أيدي مليشيات الروافض في الضاحية الجنوبية ببيروت، قال في كتابه – نسيت اسم الكتاب – بعد فراري من رجال المليشيات، التحقت بالجيش السوري طلباً للنجدة من خاطفي، والذي قام بدوره بنقلي إلى دمشقٍ، وفي طريقي إلى العاصمة رأيت شروق الشمس منذ أشهرٍ لأول مرةٍ، فقلت للضابط المرافق : إنني أرى الشمس لأول مرةٍ منذ أشهرٍ !

فقال له الضابط : إذن انظر إليها جيداً !

لكنني لم أتمكن من النظر إليها جيداً، غير أن طيف القصة والكتاب والصحفي لاح في ذاكرتي بسرعةٍ فائقةٍ أثناء وقوفي استعداداً لصعود المركبة،

وهذه مشكلتي مع تراكم المعلومات وتنوعها واندفاعها داخل عقلي في بعض المواقف التي قد لا تتلائم مع طبيعة الحدث نفسه .

ودعني بلبل السجن الصداح وعانقني بقوةٍ خنقت عبرتي، إذ ألفته وألفت صوته ووجه، كما ألفت أولئك الحراس الطيبين في معاملتهم لي طيلة بقائي في عنبر المستشفى، وقال لهم بصوته الرخيم : لا أوصيكم بأبي عمر، إذا احتاج إلى أي شيءٍ فلا تقصروا معه !

صعدت السيارة واختفى حراس عنبر المستشفى، وقام الوفد المرافق بتصفيد يدي فقط ! قلت لنفسي : هذا وهو موصيهم عليّ، أجل شلون لو ما وصاهم !؟

صعد معي حارس مسلح برشاشٍ إيطاليٍ قديم الطراز، لقد تغيرت الإجراءات عقب تفجير الوشم الذي لم يصلني خبره حتى الساعة، ثم سرنا على بركة الله، في الطريق إلى عليشة وتحت ضوء الشمس الذي تسلل إلى السيارة من بعض فتحاتها ونافذة السيارة الأمامية، قرأت بعض الذكريات التي نقشتها أيدي المساجين والمعتقلين بأدواتٍ مجهولةٍ، من ضمنها أبو عبد الله كان هنا، معتقل آخر كتب ذكرى الثلاثة، أبو فلانٍ وعلان والثالث وضع أمام اسمه كلمة "إضراب " !

تخيلتهم ينقشونها على جدار تلك المركبة السوداء وهم يضحكون ويتمازحون ويسخرون من حراسهم ومن ضباطهم وآلامهم ومصائبهم !

بدأت أتأمل قيدي الحديدي، وقرأت عليه بخطٍ لاتيني دقيقٍ عبارة محفورة تقول : **made in England** – صنع في بريطانيا – فقلت لنفسي : لعنة الله عليكم أيها الكفرة ! تبيعون أسلحتكم للعرب وتطلبون منهم وتحذرونهم من استخدامها ضد إسرائيل، وفي المقابل تصدرون إليهم أدوات العسف والقهر والاعتقال، ولا تشترطون عليهم احتكار تلك القيود لصالح المجرمين والقتلة فقط !

ليس بمستغرب على الغرب هذا التناقض والازدواجية، فهو منبع الشرور والظلم، إذ تقوم كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وأمريكا، بصناعة أدوات التعذيب والقهر، من أجهزة القلع والخلع والصعق والسلخ – أجود أنواع السياط تصنع في أمريكا – لتصدرها إلى دول العالم الثالث والدول الديكتاتورية القمعية ! ثم تفتح جمعيات حقوق إنسانهم النار على الأنظمة القمعية التي تعذب وتقتل شعوبها ورعاياها ! وتنسى توجيه سهام نقدها لتلك الدول الغربية !

تناقض مالنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من النار كما يقول رهين المحبسين !

وصلنا عليشة تصحبني أماناتي وحراسي، إلى غرفة الاستقبال " ج " قال لي أحد موظفيها الذين استلموا مني أمانتي وقاموا بترقيمها من جديدٍ ! عندما

كنت هنا في ضيافتنا، هل كنت تقطن لوحدك أم في عزبةٍ جماعيةٍ !؟ قلت له : لوحدي، وليتني قلت له مع الجماعة ! إذ لربما طال بي أمد هذه الحلقات بالمخالطة لبعض السجناء هناك ! ولكن قدر الله وما شاء فعل !

وجه حديثه لصاحبه بقوله : أين نضعه !؟ جميع الغرف ممتلئة !

رد عليه الموظف الثاني : وغرف السطوح والعيادة !؟

– مليانة !

إذن هي أزمة إسكانٍ عليشيةً، وأنا أقول : الإيجارات مرتفعة ليش ! كان السبب في ذلك تفجير الوشم الاجرامي، قال لي الموظف هناك غرفة جيدة لك بمرحاضها !

قلت له محتجاً لكنهم قالوا لي إفراجاً ! وقد وقّعت على كذا وكذا، بل وأعطوني بقايا بخشيش السجن ! تبادلا الرأي والمشورة فيما بينهما، قال أحدهما للآخر ما دام بخششوه هذا دليل ملموس على أن الرجل استلم جميع مستحقاته بما فيها راتب تقاعده عن الحبس !

ثم خلصا إلى أنهما لم يستلما أي توجيهٍ بخصوصي، لكنهما وعداني بالتحقق من أمري وذلك بالاتصال مساءً بضابط التحقيقات، لأنه ينام صباحاً

ويصحو مساءً، أول مرة أدري أن هناك خفاشاً غيري على ظهـر البسـيطة، ينـام نـهاراً ليصحو ليلاً !

أثناء خروجي من غرفة الاستقبال لفـت نظـري قبـل الـدخول إليهـا وجـود شخصٍ ينام على فراشٍ في ممرٍ من الممرات المؤدية إلى تلك الغرفة ! عندما تقلـب في فراشه ظننته من الإخوة الدبابيس، وأن مناوبتـه أجبرتـه علـى ذلـك المبيـت المزعج بجانب الغرفة وفي الممر !

لكنه عندما تحرك وكشف الغطاء عن قدميه، إذ به زميل من زملاء السجن، لقد غلت قدماه ! قلت لنفسي : يـا سـلام، رب صـدفةٍ خـير مـن ألـف ميعـادٍ ! الرجال من جماعتنا، سلمت عليه وأنا خارج مـن غرفـة الاسـتقبال متوجهـاً إلى زنزانتي الجديدة، فرد عليّ السلام، ثم أردفت السلام كرجلٍ متحضرٍ بقـولي : صبحك الله بالخير يا تـهمة .

فقال لي متأففاً : مـن ويـن يجـي الخـير منـه !؟ لم أتمالـك نفسـي حقيقـةً فضحكت بصوتٍ مكتومٍ حفاظاً على مشاعره النفسية، وفي طريقي لزنزانتي لحق بي سجاني وأوقفني في منتصف المسافة بين غرفة الاستقبال ومقري الجديد، وفي يده أجود أنواع القيود، حاول إقحامهـا في سـاقي فلـم يقـدر علـى ذلـك، وقفـت متفرجاً عليه في فناء السجن تحت أشعة الشمس، وقد طأطأ رأسـه منحنيـاً عنـد ساقي، قلت لنفسي : وش حدك على شغلة الذل هـذه !؟ أنـا عزيـز بـالله أقـف رافعاً رأسي أسيراً !

وأنت السجان الآمر الناهي هنا، تطأطأ رأسك عند قدم كل سجينٍ !؟ وكل هذا لأجل ماذا ؟ تعاليم وأوامر المصلحة !! والله لو فتح لي الباب لما فررت، فلماذا القيود !؟

فشلت محاولاته البائسة في تقييد ساقي " كانت قيوده ضيقة " غالبية المطلوبين ضعاف الحجم والبنية، أعتقد أن هذا هو سبب ضيقها ! أذعن للأمر الواقع بقوله : ما يحتاج قيود تعال معي ! فتح لي باب الزنزانة وكانت مقابلةً لزنزانتي القديمة التي كانت شاغرةً من قبل !

قال لي : زنزانتك هذه تحتوي على حمامٍ ملحق بها، وفيها جرس خاص للنداء، إن احتجت إلى أي شيءٍ فما عليك إلا أن تضغط الجرس .

أغلق بابها علي وبدأت في استكشاف هذا المحيط الجديد وقد لعبت بي الظنون وأخذتني الوساوس ! كانت زنزانتي نظيفةً ومفروشةً بالسجاد، ولها نوافذ زجاجيةً مصفحة كزنزانتي الأولى، إذ لا بد أن تتشعلق وتقفز لترى فناء السجن الخارجي، لكنها أفضل حالاً من زنزانة المستشفى اللامعة النظيفة جداً والتي لا يدخل إليها ضوء الشمس ولا هواء السماء !

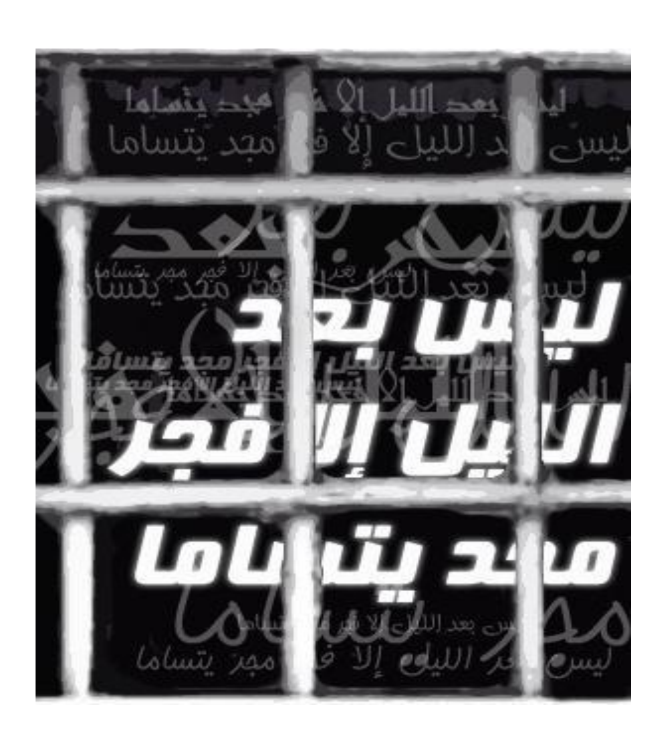
كنت أفكر فيما بيني وبين نفسي، لماذا لم يفرج عني حتى الساعة !؟ هل لأن اليوم هو يوم الجمعة مثلاً والجماعة في إجازةٍ أم ماذا !؟ هل انتهت قضيتي الأولى والجماعة ناوين على فتح قضيةٍ ثانيةٍ لي !؟

أسئلة كثيرة لم أجد بداً أمام زحفها وانهمارها من العودة إلى فن إدارة الأزمات الخفاشية – الانسطال والنوم – بدلاً من التفكير والتخمين، وعادت حليما لعادتها القديمة !

* * * * * * * * *

الفصل الثالث عشر

الإفـراج



لم تهفو نفسي إلى طعام الغداء، ولم يحظى كثيب الأرز الأصفر بمزيد احتفاءٍ أو شهيةٍ لدي، إذ انصب جل اهتمامي على باب زنزانتي متى يفتحه الخازن، مؤذناً لي بعد إذن ربي سبحانه بالرحيل والانعتاق من تلك الشرنقة الضيقة إلى عالم الحياة الفسيحة !؟

داهمتني الوساوس المسيطرة على كل يائسٍ حيال الساعات المرتقبة من تصرم يوم الجمعة، وتردد خاطر النفس بين تصديقٍ لما قيل لي من وعود إفراجٍ بزغت أسارير فجرها بين فلتات ألسن الحراس، وتكذيبٍ طاغٍ لتلك العهود التي قضى عليها رتم حياة السجون والمعتقلات ومزاجية المسؤولين !؟

أهو إفراج أم ولوج جديد لنفقٍ آخر الله أعلم بطوله وأخطاره !؟

أذن لصلاة العصر، لتلحقها بساعةٍ ونصف صلاة المغرب، أعقبتهما صلاة العشاء، ثم حضر خوان الطعام فعاد كما عاد شقيقه الغداء وقد عافته نفسي تماماً، ما خلا لقيمات لم أجد لها مسلكاً، سألت حامل الصواني عن جديد قضيتي ؟ فقال : لم يردني شيئاً من الجهات العليا .

فوضت الأمر إليه سبحانه، وأسندت ظهري جلوساً إلى حائط الزنزانة أسفل شباكها المطل على الفناء الفسيح، مر وقت طويل قبل أن يتناهى إلىّ صوت طرقاتٍ حادةٍ على باب زنزانةٍ أخرى تقابل زنزانتي وجهاً لوجهٍ تقريباً، كان الطرق شديداً للغاية وانفعالياً بشكلٍ يبعث في النفس كوامن أسئلةٍ عن حقيقة هذه الضربات المتلاحقة المنصبة على الباب الحديدي !

طاخ طاخ طاخ، كنت أتمنى أن أرد عليه التحية بأحسن منها، لكنني حللت ضيفاً على زنزانةٍ لها بابان، الأول خارجي والعياذ بالله من جماعة بن ملجم ! والثاني داخلي !

استمرت عملية الطرق لأكثر من ساعةٍ دون هوادةٍ ولا كللٍ، تخللتها فترات صمتٍ قصيرةٍ المدى، استجمع الطارق فيها شتات قوته وشجاعته ليبدأ من جديدٍ في قرع الطبول المحتجة لأسير الزنازين المغيب في جبها ! حتى بدأت أفقد أعصابي من تصاعد وتيرة طرقه وحدته !

أعتقد أنه استخدم القبضة والقدمين وربما حذاءه الشخصي في ضرب باب زنزانته ! وكنت قد قدرت وقت ابتداء الطرق بحوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً، واستمرت عملية صفعه للباب وركله حتى وقت خروجي من زنزانتي برفقة سجاني، الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل !

كنت أسأل نفسي لماذا يطرق على بابه بهذا الشكل الجنوني !؟ ولماذا لم يفتح له خازن الفناء حتى الساعة !؟ أكيد السجين هذا قل أدبه على السجانين، أو طلب خاتم سليمان، أو هدد أو رفع صوته أو لم يتعاون .. إلخ .

أذكر أن سجيناً من مناصري حركة الإصلاح حل ضيفاً على سجن الرويس بجدة، بلغتني قصته بالسند عن بعض المعتقلين الذين جاوروه، وكان سعادة السجين الإصلاحي لا يصلي مع المسلمين لا منفرداً كبعض التكفيريين الذين رافقوا بعض الزملاء في سجن الحائر، ولا مأموماً، وكان السيد أبو صلحي مدخناً شرهاً من الدرجة الأولى، ولأنه رجل منحوس في اختياراته السياسية وتصرفاته الطبيعية، فقد ساقته أقدار الله تعالى إلى مشاطرة السجن مع بعض الجهاديين الراديكاليين !

نصحوه رفاق التوقيف بالذوق والطيبة والعنف أن صلي صلت عليك ملائكة الرحمن ! وأردفوا عنفهم بالتهديد بالقوة والوعيد بالضرب أن اشهد الصلاة معنا وإلا صلينا عليك هذه المرة !

صاحبنا أبو صلحي – من مشتقات الإصلاح أغلق مخه تماماً أمام تلك النصائح، ومو ناوي يركع لله ركعة، الشباب الجهادي ما صدقوا خبراً فطبقوا تدريباتهم العسكرية الصارمة على الجار العزيز، حيث قاموا مشكورين بفتح جبهةٍ حربيةٍ فوق رأسه، وعلى ثرى ظهره خطوا ملاحم معركةٍ ضروسٍ فقدوا فيها الخلان والأحباب والقادة، لتنتهي حربهم الحامية معه باستسلامٍ مذلٍ من قبل هذا الكسول، أعقبتها صرخات استغاثةٍ من هول التأديب والقصف العشوائي الماحي لمواقع شياطينه !

جاء السجانون والضباط على وقائع صرخاته واستغاثاته، فاشتكى لهم صاحبنا عناء إصاباته في معركته غير المتكافئة مع أولئك الوحوش الإرهابيين !

سأله السجانون : وليش ما تصلي إن شاء الله !؟

قال : أنا كافر، أنا زنديق، أنا عربيد، أنا ليبرالي، أنا حر .... ما أبي أصلي إيش لكم فيّ ؟

قال آمر العنبر لأحد جنوده : رح جيب له دفتر التحقيق، نبي نسوي له محضر كفر بالله !؟

جن جنون هذا الكسول وقال محتجاً بأعلى صوته : يا عالم يا هوه يا جماعة يا بني آدم يا بويا، الواحد مو عارف يسلم منكم !؟ إن صرنا مطاوعة مسكتونا بتهمة الإرهاب، وإن دشرنا سجنتمونا بتهمة ترك الصلاة ! إيش العيشة هذه ! إيش الحياة هذه !؟

الشاهد أن تلك الضربات طغت على صوت مفاتيح المخبر التي فتحت لي باب الزنزانة، ليأمرني حاملها بقوله : تفضل الجماعة يبونك !؟ ارتديت ثوبي على عجلٍ ولحقت به وقد تعلقت نفسي بالعالم الآخر، عالم الحرية، أغلق بكل أمانةٍ باب الزنزانة خوفاً عليها وعلى مقتنياتها من انتهاك الغرباء والمشردين ! ثم انطلقنا على بركة الله إلى غرفة الاستقبال، وفي الطريق قلت له على صدى طرقات السجين القاطن تجاه غرفتي : ترى الجار أزعجنا، ليش ما تفتحوا له أو تشوفون وش عنده !؟

تبسم بمكرٍ وقال : لا تشغل نفسك، مجرد خلافٍ في وجهات النظر !!

سرت في الممر المؤدي إلى تلك الغرفة (الاستقبال) فرأيت موقوفاً يجلس على كرسيٍ ووجه للحائط، ذكرني بالتلاميذ المشاغبين الذين يقال لهم باللهجة المصرية : وشك للحيطة، ارفع إيدك فوق ! كان منتظراً دوره لأمرٍ ما أجهله،

ربما لضيق المساحة وكثافة السكان في المبنى تم وضعه هناك مؤقتاً ! كـان البلـد علـى صـفيح عنـفٍ ملتهـبٍ للغايـة، والـداخلون كثـر، وكـذا الحـال بالنسـبة للمغادرين !

دخلت غرفة الاستقبال ووجدت فيها مخبرين اثنين، أوعز إلـيّ أحـدهما أن اقعد، فجلست بينهما، قام الآخر بإكرامي مقدماً لي فنجـان قهـوةٍ عربيـةٍ مـن دلته البلاستيكية قائلاً : خذ فنجان وعلوم إرهابيين ! كم رقمـك في السـجن يـا خفوشي !؟

تلوته عليه بسرعةٍ وقد استوعبت نفسياً تغييب اسمي وهـويتي داخـل أزقـة وحواري المبنى، أخرج أماناتي من خزنةٍ عتيقةٍ ذات قفلٍ صينيٍ أسود، ثـم قـال : وقع على الاستلام .... ووقعنا .

ليسألني : زودني برقمٍ هاتفيٍ لقريبٍ لك يكفلك، أعطيته رقم شقيقي، فـدار حديث مقتضب بيني وبين شقيقي بعد السلام والسؤال عن الأحوال، أخذ المخبر مني سماعة الهاتف وتلا عليه وصفاً دقيقاً للمقر ثم وضع سماعة الهاتف .

ودعت القوم وخرجت من غرفة الاستقبال تحت قيـادة مخـبرٍ آخـر، سـرت معه في نفس الطريق الذي تم اقتيادي إليـه في جلسـة التحقيـق الأولى، أصـدقكم القول : أفتقد حتى السـاعة محققـي الطيـب الشـبيه بالشـيخ سـعيد بـن مسـفر والعياذ بالله من التحقيقات !

وصلت إلى غرفةٍ لها رقم مميز ! دخلت وسلمت على القاطن فيها، رد علي السلام وأشار إليّ أن اقعد، ثم وجه لي نصائحه : إيش لك في الدوشة ووجع الدماغ يا بن الحلال ؟ إيش لك في خرابيط الإنترنت ؟ ترى الدنيا ما تسوى، ونهايتها قريبة ! ومن هذه العبارات، وبعد هذه المقدمة القصيرة، تلا على مسامعي البيان الختامي للنصيحة الموجزة المحددة !

قلت له : فات الأوان على هذا الكلام، وما جرى جرى، والحياة عبر، وحنا عيال النهار ده ! وقل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، ويا بلادي واصلي، وسارعي للمجد والعلياء، وعطينا العهد للكنا الفهد، وولي عهده عبد الله .. إلخ .

أخرج بضعة أوراقٍ كتبت فيها تعهداً بأنني سألزم السنة، وأحافظ على الصلاة مع الجماعة، وأكف عن الحديث فيما لا شأن لي به ! وأتوب إلى الله من مماشاة بعض الأشكال ! والمشكلة أنني كنت قد توقفت عن الحديث فيما لا شأن لي به منذ فترةٍ طويلةٍ، بس عاد وش تسوي ؟ المنحوس منحوس .... والشكوى لله .

فتح درج مكتبه وقال لي: هذه الرسالة مرسلة لك من الأمير محمد بن نايف شخصياً ! فض غلاف تلك الرسالة التي حملت لي في ثناياها عتاباً رقيقاً مخجلاً، مفادها بأن الأمير محمداً يستغرب ما وقع مني تجاه الدولة والمسؤولين وصناع القرار، وأنا الشاب المثقف الواعي، الذي لم ينتبه للأخطار المحدقة

بوطنه وأبناء بلده، بل انشغل بكتاباتـه السـاخرة عـن تضـميد الجـراح، ورتـق الخروق، وترميم البناء، وعزز خطابه بقولـه : يـتم إعلامـه بـالتفجير الأخـير الذي وقع في إدارة المرور بالوشم، ليدرك خطورة الأوضاع التي يقاد لها الوطن !

قاطعته مذهولاً : انفجار !؟

قال المخبر الناصح : نعم انفجار إرهابي وقع ظهر يوم الأربعاء، وأسـفر عـن قتل كذا من المسلمين، وإصابة كذا !

حقيقةً شعرت بالحزن الطاغي لهذا العمـل الإجرامـي الجنـوني غـير المـبرر بحالٍ من الأحوال ! وقلت لنفسي : يحتمل العاقل أي معارضةٍ لسياسـةٍ، ونقـدٍ لأمرٍ واقعٍ، وتراشـقٍ لفظـي مـع مسـؤولٍ، لكنـه لا يسـتطيع أن يـبرر أو يتقبـل عمليات القتل والدمار، أو يلتمس لمنفذيها أي عذرٍ !

ثم وجه في خطابه – أي الأمير – بإعادة أجهزتي الحاسوبية إلي، وسلاحي المرخص، أما بالنسبة لمسدسي غير المرخص، فإنه يعـود لـي إن كتبـت تعهـداً على نفسي بأنني سأستخرج له رخصة حملٍ واقتناءٍ من الجهات المعنية بإصدار التراخيص .

قاطعته بقولي : يا بن الحلال خذوه هديةً مني، طيبةً بها نفسي، تراه روسي وذخيرته نادرة وغالية، وهو مساهمة مني في مكافحة المرتزقة والإرهابيين !

وصل شقيقي إلى المكتب وصافحني معانقاً بقوله : ماهي كبيرة منك يا أخفش !؟ ليكتب هو الآخر إقراراً على نفسه وتعهداً وكفالةً، ثم قرأ خطاب الأمير محمدٍ، قبل أن يدفعه فضوله للسؤال عن اسم سعادة الناصح بقوله : ما تعرفنا على الأخ !؟

زوده المخبر باسمه متردداً حذراً بعد أن بتر منه اسم العائلة والقبيلة والعشيرة ! ودعناه وخرجنا من غرفته إلى فضاء الله الفسيح، وفي الطريق إلى الخارج، رأيت في ممر الإدارة معتقلاً يشبهني في الطول والعرض، يا لله كأنني أرمق نفسي في مرآةٍ صقيلةٍ لعالمٍ آخر، عالم مررت به مساء يوم جمعةٍ غابرةٍ قبل أسابيع من عملية الإفراج عني .

كان الأخ المعتقل واقفاً في أصفاده، معصوب العينين قرب نفس المكتب الذي حللت ضيفاً عليه، ينظر الإذن بالدخول إلى نافذةٍ من التحقيق !

يا ترى ماهي تهمة هذا المخفور !؟ كتابة نتّية ؟ أم نسخ وتوزيع ؟ ربما كانت جمع تبرعاتٍ أو تحريضٍ وإرهابٍ، أو دعماً لوجستياً !؟

خرجت من الإدارة داعياً ربي أن يفرج همه وهم المهمومين من المسلمين، توقفت عند باب الإدارة الخارجي، لاستنشاق هواءٍ عليلٍ منعشٍ محملٍ برائحة الورود والخزامى والعطور، كان هواءً غربي الجهات قادماً إلىّ من قصر سموه، تبسمت ساخراً وقلت لنفسي على غرار إحدى دعايات قنواته : إيه ... مش حتقدر تغمض عينك ... هذه الليلة طبعاً !

ركبت سيارة شقيقي الذي زودني طيلة الطريق إلى منزلي بموجز لأهم ما جرى أثناء غيابي عن المنزل، سلكنا نفقاً " طريق الوشم " مفضياً بنا مساره إلى طريق الملك فهد، خرجنا من النفق إلى إشارةٍ تفصل طريقنا الفرعي عن الشريان الحيوي لمدينة الرياض طريق الملك فهد، وقبل أن نصل إلى تلك الإشارة توقف بي شقيقي أمام موقع الانفجار الذي نجح لليوم الثاني على التوالي في استقطاب أنظار واهتمامات الفضوليين من المارة، وكنت أنا وشقيقي منهم، توقفت متفرجاً على تلك السيارات المتفحمة الملتوية وقد اعترتني كآبة طاغية لمشاهد الدمار والقتل المجنونة، ولم يطل توقفنا كثيراً، واصلنا طريقنا إلى البيت، وانتهى بوصولي للمنزل فصلاً شبه طويلٍ من مأساة اعتقال كاتبٍ شبحيٍ، أرجو أن لا تتكرر .

* * * * * * * * * * * *

الفصل الرابع عشر

ومـــاذا بـعـد ؟



لم أدرك صحة مقولة متدربٍ سابقٍ عندي في إحدى الـدورات الـتي نظمتـهـا، إلا في اليوم التالي لخروجي مـن التوقيـف، حيـث قـال لـي يومـاً أثنـاء كسـرنا لروتين الوقت في قاعة التدريب : انتهت محكوميـة بعـض السـجناء في السـجن العام بالحائر، وصـرفنا لـه مـا يقـيم الأود ويعينـه علـى التنقـل داخـل أرجـاء المملكة، لنفاجئ به في اليوم التالي واقفاً بباب السجن يبكـي، يريـد العـودة إلى

مكانه السابق الذي ألفه طيلة عقدٍ ونصف ! لشعوره بالغربة وانعدام الأمان في الخارج .

وكان ذلك المتدرب مسؤولاً مدنياً في مصلحة السجون العامة . لم أتمنى العودة لذلك المكان يوماً والعياذ بالله، لكنني وقعت في حبائل تبعاتها، الحيرة والغربة !

كثيراً ما يشعر المنعتق من شرنقة السجن بالغربة في يومه التالي، لاسيما إن كان وحيداً خلال فترة اعتقاله، لم يشاطره التوقيف إنس ولا جان ولا حيوان أليف ! وهذه من أخطاء المصلحة، إذ لا بد أن توفر للمعتقل طيلة فترة التوقيف كتاباً أو مذياعاً أو رفيق سجنٍ من الموقوفين، حتى لا يعتريه الجنون وتمسه الهلوسة ويتلبسه الحقد على الإدارة والمجتمع .

وهذا إجراء طبيعي مقبولٍ لأصحاب التهم البسيطة من المذنبين، ويمكن للمصلحة أن تستثني منها عتاة الإجرام والإفساد في الأرض حسب ما تقتضيه طبيعة التهمة .

أذنت لصلاة الفجر بصوتٍ مبحوحٍ خنقته العبرة، سلم عليّ الجيران من جماعة المسجد وهنئوني بالإفراج، وحينما أسفر الصبح، قمت بتوصيل ابنتي إلى مدرستها صبيحة يوم حريتي الأول، أودعتها المدرسة وهممت بالعودة إلى مسكني على ترددٍ مني بالعودة أو التسكع في الطرقات ! قبل أن يقاطعني حارس

المدرسة الطيب – أبو ناصر – معانقاً ومهنئاً بالسلامة، وقال لي بلسان الحال لا المقال: السجن للجدعان، قلت لنفسي وللحيوانات أيضاً !

بإرخائي العنان لمركبتي بقصدٍ سابقٍ مني، سبرت مختلف طرق وشوارع مدينة الرياض الكئيبة كيفما اتفق، وكنت أتأمل معالمها وكأنني أراها لأول مرةٍ، كان الجو غائماً أضفى مزيد كآبةٍ على النفس، حتى قيادتي لمركبتي لم تكن على ما يرام، إذ كنت أتنقل بين مسارات الطرق على غير هدىً من قيادةٍ ودونما إنذارٍ سابقٍ لجيراني السائقين .

كان لتلك الفوضى غير المقصودة ثمن وضريبة، مثّلها صوت نفير السائقين الغاضب الهادر من سوء قيادة هذا الغافل، لكنني كنت في عالمٍ آخر من التأمل والإحباط !

أنا حر طليق في سجني الواسع، أتجول فيه أينما أردت ودونما استئذان سابق من أحدٍ من الناس أو الحراس الرقباء عليّ .

أزف وقت إقفال حسابي لدى الشركة المتعاقدة مع وزارة الداخلية، وكنت قد توقفت بجوار مقهى يقدم خدمات إنترنتٍ لمتابعة آخر أخبار انفجار الوشم، جلس في الكرسي المقابل لي شاب صغير السن يلفه الغموض وكثرة اختلاس النظر تجاهي ! تصفحت منتدى الساحة العربية وقرأت موضوعاً للكاتب جانو

عن الطفلة وجدان، ولأول مرةٍ بعد خروجي من السجن رددت عليه بما اعتقدت صوابه، لم أطق رائحة السجائر في المقهى فغادرت بعد أن دفعت الحساب.

قال لي ذلك الشاب متطفلاً : شكلك مصاب بالربو قالها مبتسماً !

قلت لنفسي : وش دخله ؟ لا يكون دبوساً مكلفاً بالمتابعة والمراقبة عقب خروجي من السجن !؟ أصبت بجنون الارتياب المؤقت الذي لم يسيطر عليّ كثيراً ولله الحمد .

صعدت إلى الدور الأول من الشركة التي تعاقدت معها قبل عامٍ تقريباً، قابلت مديري فيها، واستلمت جميع مستحقاتي المالية منه، وودعته غير آسفٍ إلا على إخلاصي وتعبي في التدريب، حيث بلغني أن كلا الطرفين الوزارة والشركة لم تعد لهما رغبة في رؤية سحنة وجهي ثانيةً !

قلت : شعور متبادل أيها الأوغاد، وعلى قدر المحبة تتقد العاطفة أو تخبو، ثم إن رزقي مقسوم قبل أن يخلق الله جل وعلا هذه الأرض .

عدت لمسكني ثانيةً وفتحت لنفسي نافذة استجوابٍ سريعةٍ بعد فوات الأوان، سيطر عليّ سؤال مفصلي : أين رمى بي صرير الأقلام !؟ ثم ما هذا الهم وتلك الرسالة التي ذيل بها الزميل العزيز الدكتور محمد الحضيف موضوعاته

ردحاً مـن الـزمن !؟ خسـائري مـن هـذا الهـم قليلـة أو شـبه معدومـةٍ مقارنـةً بخسائره فرج الله عنا وعنه، ولكن عن أي هم ورسالةٍ يا أبا المنذر تتحدث!؟

أيقنت أني كنت صادقاً مع نفسي في نقد بعض رموز السلطة وإن أخطأت في الأسلوب ! لم يكن هناك ثأر سابق مبيت فيما بيننا، ولا لاح لـي في الأفـق طمـع في منصبٍ ولا جاه، ثم إن غالبية مناصب الدولة في الأصل حكر علـى طائفـةٍ مـن الناس، توارثتها كابراً عن كابرٍ، ولا تلوح في الأفق بـادرة للتخلـي عنهـا حتـى قيام الساعة وخروج المسيح الدجال من جزيرته المصفد فيها !

أفرزت هذه البراجماتية – المنفعة والمصالح الشخصية – في توريث المناصـب كوارث محققة في جميع الخدمات الحكومية، رأينـا بـدايتها قبـل أعـوامٍ، وهـا نحن نقف على توسطها، استعداداً لرؤية نهايتها الكارثية على الجميع حكامـاً ومحكومين !

في الأصل ضاقت صدور علية القوم بالنصيحة التي وجهت إلـيهم علـى أيـدي النخب الدينية والثقافية، ولقد بلغني أن نذر الخطر وصلت إلى المسـؤولين أكثـر من مرةٍ، وعلى يد أكثر من ناصحٍ مشفقٍ، وحتى لا نبخسهم حقهم، كانت هناك استجابات أكثر من رائعةٍ، استبشر بها الكثيرون خيراً، ودعوا ربهم أن تستمر وأن لا يعتريها الصدأ أو الصـمم، قبـل أن تختـل دفـة المسـار، وتتمـزق أشـرعة السفينة، وتصاب البوصلة بالعطب، لتتوقـف عمليـة الإصـلاح الـتي قيـل إنهـا انطلقت !

استبدلت تلك العملية باتهاماتٍ سافرةٍ لتيارٍ على حساب تيارٍ آخر، فكال الجميع اتهاماتهم للتيار الذي تتعاطف معه شريحة عريضة من الشعب " التيار الديني " بدعم الإرهاب، عن طريق حلقات القرآن والمساجد وخطب الجمعة والتعليم إلخ.. ! وهو التيار الذي تم استغفاله من قبل الساسة وبعض المسؤولين لتنفيذ أجندة خاصة بالسياسة الدولية العالمية، محرقة أفغانستان – على سبيل المثال – التي امتصت رحيق خيرة شباب الوطن في الثمانينات، من أعطى لأولئك الشباب تخفيضاً قدره ٧٥٪ على متن الخطوط السعودية حال سفرهم لمساعدة ما عرف حينها بالجهاد الأفغاني ؟

من سيدفع الثمن في كلتا الحالتين ؟ حالة القتل أو السجن ؟

هذا التيار المغبون الذي زج بأنصاره فوق ذرى الهندكوش بأفغانستان، واحتوته – حال عودته – أقبية عليشة والحائر، تردد مصيره بين قلبين، الزعيم أسامة بن لادن الذي أغراهم بأفكاره التي قد تتفق وتختلف معه فيها، وشقيقه – رجل الأعمال – الذي بنى ويبني لهم أكبر المعتقلات وأرقاها في المملكة العربية !

ما أجمل هذه العائلة التي تعمل في مجال استيراد الشباب وتصديرهم !

تـوارى الناصحون في التكايا، وخلوا إلى أنفسهم بين تلك الزوايا اتقاءً لسـهام النقد والاتـهامات المنصبة عليهم من كـل جانـبٍ، بـل إن بعـض اللحـى الدينيـة تحولت إلى لحى ليبرالية واقتصادية تخصصت في تبييـض أمـوال المـرابين باسم الله! في حين مسخت بعضها إلى لحى صليبية تستصدر منها الفتـاوى في شـرعية احتلال أراضي العراق، وجواز قتل المسلمين الخارجين على أوامـر ولـي أمـرهم الرافضي المتدثر برداء الصليبيين !

كنت أستمع كغيري إلى أوامر لا تنفذ، مجرد حبرٍ علـى ورقٍ، وتوجيهـات إعلامية إعلانية يُسخر بها، ولا يطلـق سـراحها لـيعم خيرهـا المـلأ ! اتسـعت الهوة بـين الحـاكم والمحكـوم، وعلـت أصـوات محتجـة علـى هـذا التراجـع في الأداء، ولكن في الخفاء خوفـاً مـن الـبطش أو قطـع الأرزاق، وهـذا نـذير شـرٍ لا خيرٍ.

كفر أغلب الناصحين بالنصيحة، واستبد بـهم اليأس الخانق وكنت ولم أزل مع اليائسين، مع أنني لم أكن ناصحاً بل مراقباً كغيري من المراقبين ! والمراقـب هنا فرد في نسيج متجمعٍ من المجتمعات لا يلزم أن يكون نخبوياً أو مثقفاً.

مجرد مواطن يقرأ ويكتب ويستمع إلى الأخبار ويحلل ويرصد !

ما الذي دعاني لكتابة هذه الحلقات !؟

قرأت قبل[1] أيامٍ لقاء في جريدة **تركي السديري** أجري مع معتقل سابقٍ قاتل في أفغانستان بعد أحداث ١١ سبتمبر، سجن ما شاء الله له أن يسجن، وقابله الأمير محمد بن نايف بعد خروجه من السجن، وكان هذا السجين كغيره من السجناء الناصحين قد أوصل بضعة ملحوظاتٍ إلى الأمير محمدٍ .

توقفت بي قراءتي عند تلك الملحوظات التي يراها السجين، والتي وصل أكثرها إلى الأمير محمدٍ عن كثيرٍ من السجناء الذين حظوا بمقابلته، وأوعز إلى رجاله بإصلاح ما يمكن إصلاحه في سجون الدولة التي تخضع لوزارة الداخلية، وقد رأيت أنا كما رأى غيري بوادر تغييرٍ لا ينكرها منصف صادق، لكنها من وجهة نظري دون المأمول، وبعض تلك الأخطاء لا تزال تثير التساؤلات بين الناس، في حين شكلت بعضها صدمةً لدى الآخرين، على رأسها خوض بعض صحفنا في عرض موقوفٍ لا يزال رهن التحقيق !

انتهت محكومية بعض المسجونين ولم يعانقوا طيف حرياتهم ! بعضهم سجن لقاء وشايةٍ رخيصةٍ من نمامٍ لا يخشى الله تعالى، وبعد خروج ذلك المسكين من سجنه لم تتم معاقبة الواشي أو التحقيق معه أو إيقافه !

بعد خروجي من السجن نصحت كاتباً من الكتاب في الساحات أن خفف عباراتك النقدية، وعدني خيراً، لكنه غاب عقب نصيحتي أو غُيّب لعامٍ كاملٍ، وبعد أن رأى ضوء الشمس قال لي : جئت أرد جميلك !

---

[1] - ساعة كتابة هذه الحلقات

سألته : وما ذاك !؟

أجاب : كنت في ضيافة القوم لعامٍ كاملٍ !

سألته عن التهمة .

فقال : وتبقى الكتابة هم ورسالة !

قلت : وماذا عن مسارك الجديد في الحياة !؟

أجابني بمرارةٍ : الشعب السعودي لا يستحق أن يضحي أحد لأجله !

صديق آخر كفر بالإصلاح والنصيحة والوطن، وطلق هذا الثلاثي طلاقاً بائناً إلى يوم الدين، سجن لثلاثة أشهرٍ، عدة مطلقةٍ ! لأنه قال تعليقاً على خطاب مسؤولٍ : وما قلته يا سمو الأمير خطأ خطأ خطأ، أخذ على كل خطأٍ شهراً كاملاً !

كثيرون أكلوها بمرارةٍ، وما عاد الكاتب يدري هل ما قاله في حق مسؤولٍ ما، يعادل ما فعله كاتب الكراديب – وغيره كثير – تركي الحمد " الله والشيطان وجهان لعملةٍ واحدةٍ " ؟

ربما كانت معادلة مطرٍ هي الأقرب إلى الصحة .

لأن الكفر في أوطاننا – لا يورث الإعدام كالفكر

وفي المقابل : كي تكون شجاعاً في أعين الأحداث " مفردة حدث " والحدث إما يكون غراً سفيهاً، أو حدثاً يوجب الوضوء أو الغسل، كي تكون شجاعاً صادقاً في عرف هؤلاء السفهاء الحقراء، لا بد أن تشتم رجال المباحث وأن تلصق بهم كل خطيئةٍ وقفت عليها أم لم تقف، فعلوها أم لم يفعلوها، مع أن الله جل وعلا يقول (وإذا قلتم فاعدلوا) لكنهم لا يقبلون منك العدل تجاه الخصم، ما لم يغلف بظلمٍ سافرٍ تجاه ذلك المخالف غير المحبوب لدى الغالبية .

فإن صدقت مع خصمك الذي لا تحبه ولا تحتفي لمشاهدته وتتقي شره، فأنت في خانة الخائنين، والله لا يحب الخائنين !

عندما طال فتيل أزمة العنف مختلف أرجاء البلاد، قال لي أحد العقلاء محذراً : تبدأ الفتنة خفيفةً واضحة المعالم والأهداف، ويكون حجر الزاوية فيها تفجير منشئاتٍ غربيةٍ واستهداف بضعة فلول نصرانيةٍ، تكتسب تلك العمليات زخماً إعلامياً وصدىً لا يستهان به من تأييدٍ حماسيٍ غير منضبطٍ يخبو عند أيسر امتحانٍ .

والغربي مكروه في الجملة بين العرب والمسلمين، ديانةً وسلوكاً ومنهجاً .

غير أن وقودها الأعمى يتطور إلى قتل بعض حراس المجمعات من المسلمين خطئاً أم عمداً . ويصوّر الأمر بدايةً على أنه وقع قضاءً وقدراً أثناء تبادل إطلاق النيران، وأننا لم نستهدفهم ابتداءً !

تتصاعد وتيرة الأحداث قليلاً، لتصل هذه المرة إلى استهداف رجال الأمن شخصياً وعن سابق قصدٍ وترصدٍ، يتم بعدها قنص المدنين بكل ضراوةٍ ودونما ترددٍ، ولا تسأل بعدها عن انفلات عقالها في إهلاك الحرث والنسل واستحلال الدماء والأموال والفروج باسم الله !

عدت إلى عليشة بعد أيامٍ لاستلام بقية مقتنياتي التي سبقتني هناك بعد عملية المداهمة، وأثناء خروجي منها برفقة أجهزتي، رأيت عملية البناء والتشييد قائمة على قدمٍ وساقٍ ! ... هناك أزمة قائمة ولا شك، استوجبت ذلك التشييد المحزن لمزيدٍ من غرف التوقيف .

شخصياً تمنيت أن تكون الأيدي المشيدة لتلك الجدران، هي عينها الأيدي المسرّحة لمن انتهت محكوميته أو أوقف ولم يوجه إليه اتهامات محددة، وأن يعوض أو يطيب خاطره باعتذارٍ يرفع معنوياته ويطفئ ناره .

أخيراً : قد تغفر للمخبر والسجان وبقية أفراد المعتقل إن عاملوك كمذنبٍ زلت به قدم الصواب يوماً إلى مهاوي الخطيئة والذنب، وكل بني آدم خطاء،

وخير الخطاءين التوابون، لكنك لن تغفر لهم أبداً ولن تصفح عـنهم إن عـاملوك كخصمٍ عدوٍ .

تمت

* * * * * * * * *

هامش على الغلاف

حال شروعي في جمع وترتيب هذه المادة من مذكراتي الممنوعة من النشر، وقفت كما وقف غيري على استفحال أزمة المعتلقين في السعودية، بل واعتقال بعض الدعاة وأهل العلم، ممن نذروا أنفسهم لنفض غبار هذا الملف الإنساني العتيق!

تلاحقت الأحداث بشكلٍ سريعٍ، وتطورت القضية إلى محاولة فاشلةٍ لاغتيال الأمير محمد بن نايف، سمعنا رسائل المنفذين وشاهدناها على الشبكة، نجحت تلك المحاولة في حجب الأمير عن الناس، لقد حققوا هدفاً أسمى – لديهم من زفه شهيداً – هذا الحجب له ما بعده، من التحريض وبث الأراجيف، ونشر الإشاعات، وقطع الطريق أمام كل موقوفٍ أن يبادر لتسليم نفسه إلى السلطات طواعيةً .

لقد كان الأمير محمداً — في حقبةٍ من الحقب – عراباً لوأد الفتنة في غمرة أزمة التفجيرات التي أصابت شرق البلاد وغربها، واكتسب زخماً قوياً وسمعة طيبةً بين أكثر الناس، حتى أولئك الذين اختلفوا معه، كان لهم نافذة أملٍ بعد الله .

في وقتنا الحاضر، تشتكي الغالبية من بطئ إجراءات الإفراج، وضبابية القضايا، في غمرة يأسٍ خانقٍ أصاب العشرات من ذوي الموقوفين .

ربما كان لدى السلطة وجهة نظرٍ أخرى حيال الأحداث، لكن الأغلبية تسأل وبصوتٍ عالٍ، ما الذي يدور خلف الكواليس ؟

عالمنا الذي ألفناه من حولنا، قد تغير جذرياً، ثورات عربية أسقطت رؤساً جثمت لعقودٍ على صدور الأمة، وفي الطريق رؤس أخرى .

محمد حسني مبارك خلف القضبان، معمر القذافي قد توارى داخل جحرٍ أو نفقٍ بجوار بضعة قوارض![1]

على الصعيد الشخصي، فقدت نفسي، وفقدت الكثير من المشاعر والأحاسيس، كل شيءٍ في داخلي تغير، وحل محله شعور يائس بالضياع والاختناق، أهرب من نفسي لنفسي، يتلاشى مني الحرف، وتتبخر الكلمات، وتضمحل المفردة !

ربما كان للمأساة وجه آخر لم أنجح في وضعه بين هذه الأسطر .

[1] - ساعة كتابة هذه الأسطر

وجه كاتب أفنى عقداً من عمره على ضفاف موقع نتي، أكسبه الكثير، وخسر بسببه الكثير الكثير، وما بين الربح والخسارة أعتقد أنني فقدت كل شيء جميلٍ، على رأسه احترامي لذاتي .

لم أدرك معنى ذلك الفقد، إلا حينما رحلت ذات ليلةٍ من مسكني العتيق، عقب وشاية من جاري، وسط بكاء ابنتي الوسطى ريما على ذكرياتها الطفولية في ذلك المنزل .

لم يتبق لوالدها غير التشبث بأهداب الأمل، الأمل المفقود في حياة أفضل، ربما لن تأتي .

ربما والله أعلم